خطيب بدله

قصص وحكايات وطرائف من عصر الديكتاتورية في سورية

دار نون للنشر

ورد في قائمة المطلوبين لفرع الأمن العسكري بإدلب

الرقم المتسلسل: ٢٤٥٩٠

الاسم: محمد خطيب بن عبد العزيز بدلة والدته فاطمة تولد معرتمصرين ١٩٥٢ «كاتب ومحرر».

التهمة: سلبي، محرض ضد الدولة، ومحرض على التظاهر بشكل قوي، يتواصل مع القنوات الفضائية!

«لست أدري إن كانت التهمة قد تغيرت بعد كل هذا الزمن، وبعد مغادرتي إلى تركيا، واشتغالي في الأعمال الثورية والسياسية»!

S.D P.D

قصص وحكايات وطرائف
من عصر الديكتاتورية في سورية

اسم الكاتب: خطيب بدلة

عنوان الكتاب: قصص وحكايات وطرائف من عصر الديكتاتورية في سورية

الغلاف والإخراج الفني: الناصري

الطبعة الأولى 2014 / 1000 نسخة

دار نون للنشر

ISBN: 00000000000000 / ©دار نون للنشر

ص.ب ٤٠٠٤٤ رأس الخيمة / دولة الإمارات العربية المتحدة

www.dar-noon.com

© جميع حقوق الطبع محفوظة لدار نون للنشر بموجب عقد مع المؤلف. لا يُسمح بإعادة إصدار أي جزء من الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون الإتفاق مع المؤلف ودار النشر. يجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة الرجوع إلى الدار أو المؤلف الأصلي.

خطيب بدلة

قصص وحكايات وطرائف
من عصر الديكتاتورية في سورية

دار نون للنشر

الرحمة لروح «البُديري الحلاق» الذي رفض أن يكون مؤرخ السلاطين وكان: مؤرخ الشعب.

الرحمة لروح «عبد الرحمن الكواكبي» الذي كان يكره الاستبداد إلى حد أنه استغرق زمناً طويلاً من عمره وهو يبحث في طبائعه.

الرحمة لروح «عمر بن عبد العزيز»، الخليفة الأموي الذي كان يقف ضد الاستبداد بمعدل خمسين مرة في اليوم، أو ربما أكثر.. كتب إليه، ذات مرة، والي خراسان، «الجَرَّاحُ بنُ عبد الله»، يقول: إن أهل خراسان قوم ساءت رعيتُهم وإنه لا يُصْلِحُهم إلا السيف والسوط، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ذلك. فكتب إليه عمر: أما بعد، فقد بلغني كتابُك تَذْكُرُ فيه أن أهل خراسان قد ساءت رعيتُهم، وأنه لا يصلحهم إلا السيفُ والسوط.. والله لقد كذبت! بل يُصْلِحُهم العدلُ، والحق فابسطْ ذلك فيهم والسلام.

بدأتُ، أنا محسوبكم، بتحرير هذا الكتاب، مع بداية الثورة السورية التي انطلقت في الثامن عشر من شهر آذار «مارس» ٢٠١١.. وبقيتُ أعملُ فيه، بهدوء، وروية حتى أخبرني حَدْسي أنه أصبح مقبولاً..

فأقفلتُ تحريره بتاريخ.. ٧ / ١٢ / ٢٠١٣

وثائق شرف

الأولى: ورد في قائمة الممنوعين من السفر خارج سوريا الصادرة عن شعبة المخابرات العامة بدمشق أواخر سنة ٢٠١١:

الاسم: محمد خطيب بن عبد العزيز بدلة والدته فاطمة تولد معرتمصرين ٢ ١٩٥٢

***

الثانية: ورد في قائمة المطلوبين لفرع الأمن العسكري بإدلب

الرقم المتسلسل: ٢٤٥٩٠

الاسم: محمد خطيب بن عبد العزيز بدلة والدته فاطمة تولد معرتمصرين ١٩٥٢ «كاتب ومحرر». التهمة: إعلامي، محرض ضد الدولة، ومحرض على التظاهر بشكل قوي، يتواصل مع القنوات الفضائية!

«لست أدري إن كانت التهمة قد تغيرت بعد كل هذا الزمن، وبعد مغادرتي إلى تركيا، واشتغالي في الأعمال الثورية والسياسية»!

***

الثالثة: يزعم مؤلفُ هذا الكتاب «محمد خطيب بن عبد العزيز بدلة والدته فاطمة» أنه واحدٌ من السوريين الذين يُقَدِّمون الاعتبار الوطني على الاعتبارات الأخرى كافة.

ويؤكد أنه لم يفكر على نحو طائفي، أو مذهبي، أو عنصري «قومي»، أو عائلي، أو فئوي، أو جِهَوي، أو مناطقي، أو نخبوي.. قط.

***

وجهة نظر

مع مضي الأيام.. دارت مناقشات مستفيضة بين الناس حول مشروعية إطلاق تسمية «ثورة» على ما يحدث في سورية.. وذهب كثيرون إلى أن الثورة، في العادة، تقودها أحزابٌ وتيارات سياسية منظمة، ويكون لها برنامج محدد، ونهج واضح.. وهذا غير متوفر في الحالة السورية..

برأيي المتواضع أن ما حصل، في البداية، كان انفجاراً اجتماعياً هائلاً ناجماً عن الضغط الهائل الذي تعرض له الشعب السوري طيلة السنوات الأربعين الماضيات المستبدات..

وبالتدريج، أخذت تتشكل ملامح الثورة، ولا سيما حينما تقاربتْ، وتوافقت الآراءُ المختلفة حول ضرورة إسقاط النظام الديكتاتوري المتخلف، المستبد، وإقامة «دولة مدنية» مكانه، ترتكز على مبدأ المواطنية، وتحفظ حقوق جميع السوريين من مختلف القوميات والأديان والمذاهب، وتضمن عملية التداول السلمي للسلطة..

ولكن ما حدث، من صعود القوى الإسلامية، ووجود قسم كبير منها يتصف بـ «التطرف»، وإعلان بعض هذه القوى أنها تريد إقامة دولة إسلامية، ودولة خلافة، جعل حسابات الثورة كلها تتغير، وتتلخبط.

الآن، وفي كل الأحوال، إذا نجح الشعب السوري- بعد إسقاط النظام- في إقامة الدولة المدنية المنشودة.. يمكننا أن نسميها «ثورة»، من دون أي تردد، أو غمغمة..

وإن لم ينجح في ذلك.. فعلى هذه البلاد السلام.

توضيح واعتذار

حُكمت سورية.. منذ استيلاء الجنرال حافظ الأسد على السلطة يوم «١٦/١١/١٩٧٠» وحتى تاريخ تحرير هذا الكتاب، من خلال تحالف قوتين جبارتين هما: قوةُ الأجهزة الأمنية التابعة لمجموعة الأسر الحاكمة، وقوة الإعلام.. فالأجهزةُ الأمنية تُراقِبُ، وتتنصت، وتَعْتَقِلُ، وتَسْجُنُ إلى آجال غير مسماة، وتُطَارِدُ، وتُشَرِّد، وتُصَفِّي، وتَقْتُل، وتُمَثِّلُ بجثث المواطنين السوريين المعترضين على هذا النهج،.. والأجهزةُ الإعلاميةُ تختلقُ الأكاذيب التي تموه الحقائق، وتَخترع و«تُفَبْرِكُ» أكاذيبَ موازيةً لها، وتحاولُ، من خلال هذه الأكاذيب، إيهامَ الرأي العام، في الداخل والخارج، بأن «النظام» بريء مما حصل، وأن ثمة قوى وَ.. جِهَات أخرى تقصدت ارتكابَ تلك الأفعال، تنفيذاً لمؤامرات و«أجندات» استعمارية خارجية، ورجعية داخلية مرتبطة بالخارج، لكي تسيء للشعب، والقيادة الحكيمة في آن معاً.

ولأجل تحقيق هذه المعادلة التسلطية، القائمة على كذب مكشوف غير مشوب بأية شائبة من صدق، فقد عمدت السلطة «الأمنية/الإعلامية» إلى التعتيم الإعلامي الشامل، ومنع أي إعلام خارجي حر من دخول البلاد، وحَصَرَتْ عملية السماح بإنشاء مؤسسات إعلامية داخلية خاصة برجال تثق بهم، أغلبُهم مسؤولون متقاعدون، أو أبناءُ ضباط أمنيين سابقين مشهود لهم بالولاء للنظام،.. وحتى المراسلون الذين تعتمدهم الصحف والمحطات التلفزيونية العربية والعالمية فلا يمكن

لهم أن يعملوا في سورية إذا لم يكن معهم «Ok» ليس من وزارة الإعلام السورية، وإنما من إدارة المخابرات العامة، أو أية جهة أمنية كبيرة أخرى.

وأما جريدة «الوطن» وهي الوحيدة اليومية الخاصة، فيمتلكُها أحد أعمدة النظام الكبار، المختص بعملية النهب الممنهج للشعب السوري، المدعو رامي مخلوف، الذي لم يتوانَ، حينما قُرع ناقوس سقوط النظام من قبل الشعب السوري العظيم إلى الاستنجاد بإسرائيل.. «استنجد بها شخصياً.. وصراحةً، ومن دون أي تمويه أو مواربة»!

لهذا كله يمكننا القول: إن المواطن السوري، بسبب التعتيم الإعلامي الشامل المزمن، قد تحول إلى محلل سياسي استراتيجي، يُضْطَرُّ لأن يستمع إلى عدد كبير من الفضائيات والإذاعات، ويحاول استخلاص الحقيقة، أو ما يقارب الحقيقة منها، بنفسه.

***

على هَدْي ما سبق.. أحببتُ أن أتقدم للقارىء الكريم باعتذار شديد اللهجة عما يمكن أن يرد في هذه الكتاب من معلومات قد لا تتوفر فيها الدقة المتناهية.. فيؤثر ذلك على مصداقيتي التي أزعم أنني أمضيتُ عمري وأنا أسعى إلى الحفاظ عليها..

***

وإنما هي، في كل الأحوال، رؤية، واجتهاد، ووجهة نظر..

الفصل الأول - من هنا كانت البداية

تلقيح النساء بالوكالة

بدأت الأزمة السياسية في سورية يومَ السادس من آذار مارس ٢٠١١ حينما اعْتَقَلَ فرعُ الأمن السياسي بدرعا الذي يقوده العميد عاطف نجيب «ابن خالة بشار الأسد» خمسة عشر طفلاً، بتهمة كتابة عبارات على الجدران يبدو أنها تسللتْ إلى وجدانهم من خلال متابعتهم القنوات التلفزيونية التي كانت تعرض وقائع الثورات التي اشتعلت في تونس ومصر وليبيا، عبارات من قبيل: «الشعب يريد إسقاط النظام»..، «الله- سورية- حرية وبس».. إلخ .. وقيل إن الأطفال عُذبوا بقسوة وصلت إلى حد قلع الأظافر.

بعد أيام على اعتقالهم ذهب أهلوهم إلى عاطف نجيب، وطالبوه بالإفراج عن أبنائهم، لكنه سخر منهم، وقال لهم:

- انسوا هؤلاء الأبناء، واذهبوا إلى نسائكم وخلفوا أبناءً غيرهم.. وإذا كنتم غير قادرين على ذلك، فنحن ننوب عنكم في هذا الأمر!

نار الثورة

هذا الجواب اللئيم أغضب أهالي درعا «الذين كانوا قد ذاقوا الأمرين، في السابق، من استبداد عاطف نجيب والمحافظ فيصل كلثوم ورموز النظام الآخرين الموجودين في مختلف مفاصل الحياة».. فكانوا السبّاقين إلى تأجيج نار الثورة، إذ وزعوا منشورات في مركز المدينة،

والقرى التابعة لها، دعوا فيها للقيام بثورة سلمية، بعد صلاة الجمعة، تنطلق من المسجد العمري في المدينة. لكن العميد عاطف نجيب كان قد استدعى، للمؤازرة، قوات أمنية كبيرة، أُرْسِلَتْ بالطائرات الحوامة من دمشق إلى درعا، وباشروا بقمع المتظاهرين بالرصاص الحي، واقتحموا الجامع العمري، مما أدى إلى سقوط ضحايا زاد عددهم عن المئة.

الرواية الرسمية كانت «صورة طبق الأصل» عن الرواية الرسمية لأي حادثة جرت في سورية عبر الأربعين سنة الماضية، وهي أن «مندسين»، و«مخربين»، و«عملاء مرتبطين بالأجندات الاستعمارية» استغلوا الاعتصام السلمي، وحاولوا زرع الفوضى، والاعتداء على الممتلكات العامة، مما «اضطر» قوات الأمن للتصدي لهم.. بقصد الحفاظ على أمن الموطنين وسلامتهم!

مفردات العصابة

وفي سبيل استغفالنا، واستهبالنا نحن السوريين الذين لا نعرف شيئاً مما يجري على الأرض- بسبب التعتيم الإعلامي المزمن- فقد جاؤوا بعدد كبير من الأسلحة، وصناديق الذخيرة، ورزم النقود، وأخذوا لها صورة بانورامية، بكاميرا ديجيتال شديدة الوضوح، وقالوا إنهم عثروا على هذه الأسلحة والذخائر والأموال داخل الجامع العمري حيث كانت «العصابة الإجرامية» تتمترس..

«ملاحظة أولى: كان ثمة خطأ تقني ساذج في هذه الرواية، وهي أنهم وضعوا رزماً من العملة «السورية» بجوار الأسلحة، مع أنهم قالوا إن العصابة مرتبطة بالخارج، والمفروض أن تكون العملة دولارات، وجنيهات استرلينية، وريالات سعودية، ويوروّات، وما شابه ذلك».

«ملاحظة ثانية: الرزم النقدية كانت ملفوفة بلصاقات مصرف سورية

المركزي، مما يوحي بأنها قد أحضرت من المصرف المركزي طازجة!!..
وهذا يعني- أيضاً- أن الجهة التي تتآمر على النظام السوري.. هي الجمهورية العربية السورية!!».

الصياصنة وحمزة وتاج

بعد زمن، حينما قتلت الأجهزةُ الأمنية الفتى حمزة الخطيب «١٣ سنة».. صَدَّرَ الإعلامُ السوري روايةً تقول إن الفتى حمزة والشيخ الصياصنة كانا ذاهبين لاغتصاب نساء الضباط حينما ألقي القبض عليهما..

كاد عقل صديقي الأديب الراحل تاج الدين الموسى أن يخرج من برج رأسه حينما سمع هذه الرواية، فقال، والغضب يأخذ منه كل مأخذ:

- ولد لم يبلغ مبلغ الرجال، وشيخ كبير على حافة قبره.. بودي أفهم.. كيف يستطيعان اغتصاب النسوان؟!

طي الرواية الرسمية

بعد أيام التقى بشار الأسد مع مجموعة من علماء درعا ووجهائها، وأفهموه حقيقة ما جرى منذ اعتقال الأطفال، وأكدوا له أن الجامع العمري لم يكن فيه أحد غير المصلين الذين اعتصموا لأجل أبنائهم وشهدائهم.. فَتَفَهَّمَ بشار- على ما ذكرت الأخبارُ التي رشحت عن اللقاء- الموقفَ، كما زعموا، وأمر بتشكيل لجنة للتحقيق، وأقال المحافظ فيصل كلثوم والعميد عاطف نجيب، ووعد بإحالتهما إلى القضاء.

«وطويت الرواية الأولى الكاذبة، لأنها أصبحت مناقضة لموقف الشخص الذي لا يزلُّ، ولا يخطىء، وكلامُه غير قابل للمناقشة.. بشار الأسد»!!

وجهك إلى الجدار

حينما كنا في المدرسة الابتدائية، كان المعلم، إذا أراد أن يُنزل أقصى العقوبات بأحد التلاميذ المشاغبين، يأمره بأن يقف على ساق واحدة، يدير وجهه نحو الجدار، ويرفع يديه إلى الأعلى.

فنان الشعب السوري، الكبير، العالمي، علي فرزات رسم عاطف نجيب وفيصل كلثوم على هيئة تلميذين مشاغبين عاقبهما بشار الأسد بأن يقف كلٌّ منهما على ساق واحدة، ويدير وجهه إلى الجدار، ويرفع يديه إلى الأعلى!

(ملاحظة أولى: بعد مضي عدة أشهر على إقالة عاطف نجيب، سئل بشار الأسد عما إذا كان قد أحاله إلى القضاء فقال: لا نستطيع ذلك، إذ لم يتقدم أحدٌ بدعوى قضائية ضده)!!!!

(ملاحظة ثانية: هذه الذريعة البائسة التي قدمها بشار لتسويغ جرائم ابن خالته، كانت لها سابقة مشابهة لها.. فحينما استنجد ابن خاله رامي مخلوف بإسرائيل، صراحة، ومن دون مواربة، وقع النظام الديكتاتوري في موقف مُحرج، فصرح ناطق باسم النظام السوري أن «السيد» رامي مخلوف مواطن سوري عادي، وليست له أية صفة رسمية في الدولة!!!.. والمواطن العادي- في سوريا الأسد- حر فيما يعتقد أو يقول)!!!!!!

(ملاحظة ثالثة: لا بشار الأسد، ولا غير بشار الأسد، بقادر على مساءلة عاطف نجيب عن تصرفه الإجرامي حيال أهل درعا، ذلك أن بإمكان عاطف أن يقول لبشار، بعينين مفتوحتين على مداهما:

- يا ابن خالتي العزيز.. أنا تصرفت بناء على توجيهاتكم، وبموجب اتفاقنا.. ألم نتفق، قبل الأحداث، على ضرورة قتل أي سوري يطالب بالحرية، كائنا من كان، ودون الحاجة للحصول على إذن أو موافقة؟!).

علي فرزات

كان من الطبيعي أن يقف الفنان العالمي علي فرزات «وأمثالُه من المثقفين الكبار» مع الشعب، فلو أنه وقف مع السلطة الديكتاتورية، لَكُنَّا اعتقدنا أن الديكتاتورية شيء جميل، ونافع للشعوب!

قدم علي فرزات، خلال الأزمة، رسوماً كاريكاتيرية أقرب ما تكون إلى وجدان الشعب السوري المنتفض ضد الظلم.. وفي حوار له على قناة «العربية» بتاريخ ٢٠١١/٨/٥، انتقد أداء النظام السوري في إدارة الأزمة السياسية التي تعصف بسورية، وقال عبارة أنا أعتبرها قمة القمم في الدقة والإصابة، وهي أن مَن يريد أن يخرج من الحفرة، فإن عليه، قبل كل شيء، أن يتوقف عن الحفر! وحينما سُئل عن قول بشار الأسد «إن علي فرزات قد طعنني في الظهر»، أجاب: إن بشار الأسد يمتلك دبابات وطائرات ومدافع وصواريخ وزوارق حربية، وأنا لا أمتلك غير هذه الريشة، فكيف أستطيع أنا أن أطعنه؟!

تكييس

يوم الجمعة ٢٠١١/٨/٢٦، كمنتْ مجموعةٌ من «عصابة المخابرات» للفنان علي فرزات في ساحة الأمويين، اختطفوه، وألبسوا رأسه كيساً من الخيش، وشرعوا يضربونه على وجهه ويديه ضرباً مبرحاً، قائلين له، بحقد غير مسبوق في تاريخ الديكتاتوريات عبر التاريخ:

- تتطاول على أسيادك بيت الأسد يا حقير؟!

سبح بحمد سيدك

يعتقد شبيحةُ النظام ونبيحتُه، جازمين، أنه ليس من حق أي مواطن سوري «غيرهم» أن يحصل على أي حق، أو مكسب، أو ترخيص، أو امتياز..

وإنه لمن المستبعد، بالطبع، أن يوجه أيٌّ منهم الانتقادَ إلى حافظ الأسد، ووريثه بشار الأسد بسبب كونهما قد منعا إصدار الصحف الخاصة في سوريا، وصادرا حرية الصحافة، وكرسا إعلام «الصوت الواحد».. ولكنهم يفتحون أشداقهم على مداها حينما «يخرج» فنان مثل علي فرزات عن مسار الجوقة الإعلامية البائسة، ويقول رأياً لا يُعجبهم.. وسرعان ما تتوحد آراؤهم ضده، لأنه حصل على «مكرمة» ترخيص جريدة «الدومري» من بشار الأسد شخصياً، ومع ذلك لم «يسبح» بحمد الرئيس، القائد، الكبير، المُلهم، المعطاء.. فأصبح حاله مثل حال «العبد» الآبق الذي أحب أن يتطاول على «أسياده» فاستحق الضرب والتكييس «أي التعبئة في الكيس»!

***

الفصل الثاني- طرائف إعلامية

هتاف

اعتمدت الثورة، منذ اليوم الأول لانطلاقها، الهتاف التالي:

كاذب كاذب كاذب.. الإعلامي السوري كاذب..

صوت الحقيقة

إثر استهداف مقر «الفضائية الإخبارية السورية» من قبل مجموعة مسلحة مجهولة «في٢٠١٢/٦/٢٧».. اجتمع الاشخاصُ الذين عُينوا مؤخراً بصفة أعضاء في مجلس الشعب، ونطقوا برأي واحد، موحد، لا يأتيه الاختلاف ولا التنوع من بين أيديه ولا من خلفه، وهو أن الهدف الرئيسي لهذا العمل «الإجرامي»، «الجبان»، هو إسكات صوت «الحقيقة»!!!!!!!!!

جبان؟

وصف الإعلامُ السوري الأزلي التفجيرَ الضخم الذي استهدف مبنى الأمن القومي بدمشق ٢٠١٢/٧/١٨، (الذي نُسب إلى الجيش الحر، ولكن، توجد أقوال متضاربة تشير إلى أن عصابة الأسد هي التي نفذته) وأدى إلى قتل أربعة من القرامي الكبيرة في النظام السوري «آصف شوكت، وداوود راجحة، وهشام الاختيار، وحسن توركماني».. بأنه عمل «جبان»..

كان الشاعر الراحل ممدوح عدوان «أبو زياد» يستغرب إصرار الإعلام السوري على استخدام كلمة «جبان» في وصف العمليات التي تستهدف قواته..

وكان يقول:

- يمكنك أن تصف هذا العمل بأي شيء عدا «الجبن»!.. وإذا أردتَ إعْمَالَ المنطق.. يمكنك أن تصف هذا العمل بأنه «شجاع»!

بالمناسبة

كان ممدوح عدوان من أوائل المثقفين السوريين الذي انتبهوا إلى قيام الإعلام السوري، برمته، على الكذب، وكان، في مطلع الثمانينات قد تساءل، من خلال كاسيت تم تسريبه من اجتماع بين القيادة وبعض المعارضين السوررين آنذاك:

هل يوجد إعلام يخفي الكوليرا ويكذب في درجات الحرارة؟ نعم. يوجد إنه الإعلام السوري!

جلسات النواح والندب

ثمة جلسات خاصة لمجلس الشعب السوري، عُرفت باسم «جلسات النواح والندب»، كانت تُعقد على نحو استثنائي عندما يشعر نظام الممانعة السوري بأنه أهين، أو تلقى ضربة موجعة من أحد ما..

عُقدت واحدة من هذه الجلسات بتاريخ ٢٠٠٥/١٢/٣١ حينما انشق شريكُ حافظ الأسد في تثبيت دعائم النظام الديكتاتوري الشمولي عبد الحليم خدام.. عن منظومة الوريث بشار..

والإعلام السوري، يومها، كان طويل البال إلى درجة أنه نَقَلَ، على

الهواء مباشرة، وبشكل ممل، مداخلات الأعضاء الذين يربو عددهم عن الـ «٢٥٠» عضواً، كاملة، وقد ظهروا، كلهم، دون استثناء، منزعجين، غاضبين، حانقين على الأستاذ عبد الحليم خدام الملقب «أبو جمال»، الذي سرعان ما أطلق عليه رئيسُ المجلس «الدكتور محمود الأبرش» لقبَ «أبو قبح!»،.. وشرع جميع الأعضاء، من دون استثناء، يوبخونه، ويهينونه، ويزدرونه، ويسبونه، ويسخرون منه، ويتهكمون عليه، ويقللون من شأنه، ويُسَخِّفون آراءه، ويلقون بظلال الشكوك حول تاريخه الخبيث، ومواقفه الخسيسة، ويعتبرون «الخيانة الوطنية العظمى» المرتبةَ الدنيا في قائمة ذنوبه، وجرائمه، وفظائعه!..

المعلم أبو جمال

قرف معظمُ أبناء «الشعب» السوري من هذا الإسفاف الذي بدر عن مجلس «الشعب»، بمناسبة انشقاق أحد دعائم النظام الديكتاتوري الشمولي «عبد الحليم خدام»، لأنه، برأيهم، إسفافٌ زائد عن حدود الإسفاف التي عُرف به هذا المجلس نفسه منذ فَجْر الحركة التصحيحية المجيدة حتى تاريخه!.. فهم يعرفون، حق المعرفة، أن هؤلاء الأشخاص الذين عينهم النظام الديكتاتوري بصفة أعضاء في مجلس «الشعب»، كانوا، قبل انشقاق عبد الحليم خدام، يحبونه، ويستلطفونه، ويحبذونه، ويريدونه، ويشتهون صحبته، ويبدون له الكثير من المودة، والكثير من الحماس، ويتزلفون له، وينافقون له، ويترققون أمامه حتى تكاد شخصياتُهم أن تضمحل،.. وكانوا يتحينون الفرص، والظروف، و«المقادير» لكي يلمحوه عن قرب، أو يجتمعوا معه ولو لمدة خمس دقائق، أو أن يتبادلوا معه رقم الموبايل حتى ولو لم يبادر هو للاتصال بهم، وحتى ولو لم يرد على اتصالاتهم، فالمهم لديهم أن تتشرف أسماؤهم بالظهور على شاشة موبايل المعلم أبي جمال الكريمة!!.. ومع

أن علاقة معظم هؤلاء الإمَّعات بالله تعالى، وبالأديان السماوية ضعيفة، واهية، إلا أنهم كانوا يستيقظون، في الصباح الباكر، ويتوضؤون، «مبللين أذرعتهم حتى الآباط».. ويصلون الفجر، ويتضرعون إلى الله تعالى أن يتكرم عليهم، فيجمعهم بـ «أبي جمال»، ويحنن قلبه عليهم!

ملفات الفساد

ومن الأشياء الطريفة التي وردت ضمن «جلسة النواح والندب» المذكورة، أن عضو مجلس الشعب المدعو شعبان شاهين، وهو وزير عدل سابق، قال إنه يحتفظ بملفات الفساد الخاصة بعبد الحليم خدام منذ عام ١٩٨٣.

كان السؤالان اللذان تداولهما أبناءُ الشعب السوري فيما بينهم، صباح اليوم التالي، هما:

- لماذا احتفظ ذلك «العكروت» شعبان شاهين بتلك الملفات طيلة تلك السنين، ولم يحرك أية دعوى قضائية ضد المجرم الخائن المدعو عبد الحليم خدام؟! وكم كان يلزمه من الوقاحة، والبجاحة، وقلة الحياء، والاستخفاف بمشاعر الشعب، حتى جرؤ على الإعلان بأنه كان يتكتم على ملفات فساد عبد الحليم خدام منذ اثنتين وعشرين سنة بينها أربع سنوات كَبيسات؟!

عكروت آخر

في آب أغسطس من عام ٢٠٠١ ألقي القبض على النائب مأمون الحمصي بعد إعلانه إضراباً عن الطعام في مكتبه مطالباً برفع حالة الطوارىء، وإطلاق الحريات العامة، ويأتي الاعتقال بعد أن رُفعت عنه الحصانة الدبلوماسية بإذن من رئيس مجلس الشعب الشبيح الأستاذ

عبد القادر قدورة، ثم حَكَمَت عليه محكمة الجنايات بالسجن لمدة خمس سنوات.

مدير مالية طرطوس، أعلن، في ذلك الحين، أن مأمون الحمصي متقاعس عن دفع الضرائب منذ عام ١٩٨٩.

السؤال نفسه وجهه الشعبُ السوري لمدير المالية المذكور: لماذا لم تبادر، أيها العكروت، الحقير، إلى الحجز على أملاك مأمون الحمصي لقاء تقاعسه عن دفع الضريبة؟ ولماذا تكتمت عن هذا الموضوع لمدة اثنتي عشر سنة؟!.. ولو لم يعلن الحمصي معارضته للنظام أما كنت استمريت في مساعدته على التهرب من دفع الضريبة إلى ما شاء الله؟!

تعقيب

وفي تلك الجلسة العجيبة قال أحد الأعضاء: إن عبد الحليم خدام عميل للإمبريالية منذ ثلاثين عاماً!!!! وحرص آخر على أن يُظهر مواهبه الشعرية فقال «وعذراً للركاكة.. فهي من المصدر»:

خدامٌ إذا ضُرب الحذاءُ برأسه

قال الحذاءُ: بأي ذنب أُضْرَبُ؟

الحقيقة أولاً

و.. يجب علينا ألا ننسى، مع هذا، أن عبد الحليم خدام قد أساء إلى الشعب السوري إساءات تصل إلى مرتبة الإجرام.. فهو واحد من الذين أرسوا دعائم نظام حافظ الأسد الديكتاتوري الشمولي خلال أكثر من ثلاثين سنة، وكان يريد، ويأمل، ويرجو، ويتوسل، ويتضرع إلى الله بأن يُبقيه إلى جانب الوريث بشار، ويساهم في ترسيخ دعائم الديكتاتورية الموروثة، بغية الحفاظ على المكاسب الضخمة التي حققها وأولادُه

خلال هاتيك الحقب.. ولكن الفريق الديكتاتوري المرافق لبشار الأسد لم يتآلف مع هذا «الهدهد الختيار»، فاضطر حضرتُه للانشقاق عن نظام الوريث بتاريخ ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٥.

كان عبد الحليم خدام من أكبر أعداء الديمقراطية ورياح التغيير، وأعتاهم، بدليل أنه قال في محاضرة له على مدرج جامعة دمشق بتاريخ ٢٠٠١/٩/٥، رداً على بيان لجان إحياء المجتمع المدني «الذي صدر بتاريخ ٢٠٠١/٤/١٤» بتوقيع ألف شخصية وطنية سورية طالبوا فيه بإلغاء قانون الطوارىء وإطلاق الحريات العامة، وحرية الصحافة، وإخلاء السجون من معتقلي الرأي، بالحرف الواحد:

- لن نسمح لهؤلاء بـ «جزأرة سورية».. والعودة إلى عهد الانقلابات!

ملاحظة أولى: الجزأرة تعني الفوضى والحرب الأهلية مثلما حصل في «الجزائر» ذات حقبة..

ملاحظة ثانية: برأي عبد الحليم خدام- قبل أن ينشق ويصبح معارضاً ديمقراطياً «بلا قافية»- أن الديكتاتورية العسكرية الأمنية هي الشيء الوحيد الذي يحمي سورية من الفوضى والدمار و«الجزأرة»! وأضاف، معلقاً على جماعة «المجتمع المدني»:

هؤلاء يسعون إلى تسليم سوريا لقمة سائغة لإسرائيل والصهيونية العالمية!!!

السَّوْرَنة

أبدع الإعلام السوري، خلال السنوات العجاف من حكم حافظ الأسد ووريثه، في نحت المصطلحات السياسية التحذيرية، فكلما تحدث أحد مطالباً بالحرية، يسارعون إلى القول: إنكم تدعون إلى الفوضى، والحرب الأهلية، و«لَبْنَنة» الوضع السوري.. و«جَزْأَرتِه».. فإذا ظهر نَفَسٌ إسلامي

في المجتمع يسارعون إلى الكلام عن مخاطر «الأفْغَنة»، وعن احتمالات الفوضى ينصحون بالابتعاد عن «الصَوْمَلة»..

ويقولون عن المعارض السوري الذي يتأكدون من ثباته على الوقوف ضدهم: «مُتَأَمْرِك» و«مُتَصَهْيِن».

المفارقة العجيبة، أن معظم الدول المحيطة بنا، حينما رأت ما فعلته سياسة «الأسد أو نحرق البلد» في سوريا من قتل وتشريد وتدمير، أخذت تحذر شعوبها من «السَّوْرَنة»!

وفي يوم الثلاثين من شهر تشرين الأول «أكتوبر» ٢١٠٣، حذر الأخضر الإبراهيمي من «صوملة» سوريا، فرد عليه مسؤول في الخارجية الصومالية قائلاً بأن الصومال بلد مستقل، وليس من العدل استخدام هذه الصفة- دائماً- للإقلال من شأنه!

غباء التهمة

أنا- مؤلفَ هذا الكتاب- لستُ إنساناً مهماً، «بالتأكيد.. وليس بالتواضع»، ولستُ عظيماً، ولكنني، كما هو معروف، حققتُ شهرة لا يستهان بها، بسبب غزارتي في الإنتاج الأدبي والصحفي، فقد مر علي حينٌ من الدهر كنت أكتبُ في: «النور»، و«الدومري»، و«البيان الإماراتية»، و«تشرين الأسبوعي»، و«الأسبوع الأدبي»، وبعض الصحف السورية المحلية، في آن واحد، عدا عن أني كنتُ أصدر مجموعة قصصية كل سنتين على الأكثر..

وربما كنتُ أول كاتب في سورية تناول شخصية عبد الحليم خدام بالنقد، والتشريح، ومقالتي عنه في «النور»، أوائل سنة ٢٠٠٦، أصبحت مشهورة.

المهم.. ولأني مشهور «وليس لأنني مهم» فأنا أتعرض، بشكل يومي

تقريباً لتهم مختلفة، ومعظمُها تتميز بالغرابة.. ولكن أغربها على الإطلاق هي تلك التي كتبها بالأمس القريب أحد أعضاء مجموعة «مجلة كش ملك» الإلكترونية، إذ قال:

ومعروفٌ أن خطيب بدلة من جماعة عبد الحليم خدام!!!!!

لأجل الشعب

لقد شارك في الثورة ضد حكم بشار الأسد معظمُ أبناء الشعب السوري.. والإعلامُ السوري- كما تعلمون- سمى الثورة «مؤامرة»، وأطلق على الثوار صفات رذيلة مختلفة، من قبيل: «متآمرون» و«إرهابيون» و«مأجورون» و«عراعرة».. إلخ.

ولكن الغريب في الأمر، أن هذا الإعلام نفسه، ما ينفك يعلن- كلما دق الكوز بالجرة- أن كل ما يرتكبه النظام من جرائم ومجازر، إنما يرتكبها بناء على رجاءات من أبناء «الشعب»!.. وكرمى لعيني «الشعب»!.. ولصالح أبناء «الشعب»!..

وبما أن هذا النظام «الساقط» قد تأخر «سقوطه» كثيراً فإن المسؤولين السوريين والإعلاميين السوريين لم يتوقفوا قط عن القول بأن «الشعب» السوري قد أحبط المؤامرة! و«الشعب» السوري انتصر على المؤامرة!..

«بمعنى أن الشعب نجح في الحفاظ على النظام الديكتاتوري الذي يعشقُه.. وأخمد كل الأصوات التي تطالب بالحرية والانعتاق»!

وعلى إثر كل مجزرة يرتكبها النظام السوري.. يقول الإعلام السوري:

عصابات إجرامية مسلحة اعتدت على «شعب» البلدة الفلانية، وعاثت فيها فساداً، وارتكبت مجزرة بحق النساء والشيوخ والأطفال، فتصدى لها الجيش العربي السوري الباسل، بناء على نداءات استغاثة

من أبناء «شعب» البلدة، وطهر البلدة من فلول الإرهابيين، وأعاد الأمن والأمان والاستقرار إلى الإخوة المواطنين!!!!..

(هذا البند الأخير يمكننا ترجمتُه على النحو الآتي: إن الرجال المسلحين من أبناء البلدة الفلانية هم الذين قتلوا آباءهم وأمهاتهم ونساءهم، وذبحوا أطفالهم.. بأيديهم)!!..

لماذا يا ترى؟

لا أحد يعرف.

جيش الشعب

قال أحد الظرفاء السوريين إن مَنْ أطلق على الجيش العربي السوري اسم «جيش الشعب» لم يكن مخطئاً.. فلقد تبين أن هذا الجيش مولع بقتل «الشعب»!.. فحاز هذا اللقب بجدارة!

رز

من البهارج التي ابتكرها النظام السوري العجيب دأبُهُ على تحميل مجموعة من «الشبيحة» في سيارات شاحنة، وإفراغهم على أحد الطرقات العامة، وجعلهم ينتظرون إحدى كتائب الجيش العربي السوري الباسل، وهي عائدة من مجزرة رهيبة ارتكبتها للتو وما تزال دماءُ السوريين تقطر من جنازير دباباتها وأيدي جنودها، ثم إعطائهم الأمرِ بأن يرشوا الرز على الآليات المجرمة والجنود المجرمين!

ذات مرة، وكانت إحدى القطعات العسكرية قد ارتكبت مجزرتين في قريتين تابعتين لمحافظة إدلب، رش عليها قطيعٌ من الشبيحة أرزاً، وكانت بينهم ابنة بلدنا الأرملة «أم فلان».

ابن حميها علم بالأمر، فغضب منها غضباً شديداً، وقال لها:

- يا بنت الكلاب!! من يوم أن توفي أخي وأولادُه يشتهون على أكلة «رز بحليب»!.. وأنت لا تلبين رغبتهم بحجة أن ثمن الرز مرتفع.. فما الذي استجد في الموضوع حتى ترشي الرز على الدبابات؟ هل انخفض سعر الرز ونحن لا علم لنا بذلك؟!

حيوان

رداً على الثائر السوري الذي كانت الفضائيات تكرر عرض صورته وهو يصرخ بأعلى صوته «أنا إنسان ماني حيوان»، اجتمع قطيع من الشبيحة في ساحة عامة، وشرعوا يصيحون بأعلى أصواتهم:

أنا حيوان ماني إنسان!

أكذوبة ضخمة

يقعُ الإعلام السوري، من خلال انتهاجه الكذبَ على نحو استراتيجي، في مطبات كبيرة، ولا سيما حينما يُطلق أحدُ رجال المخابرات الكبار، أكذوبةً من النوع الساذج، الجلف، الذي يتنافر مع أبسط قواعد المنطق الإنساني.. ويكون لزاماً- إذ ذاك- على الإعلام البائس أن يرقع، أو يرفو الخرقَ الناجم عن الأكذوبة غير القابلة للتصديق.

ضمن هذا السياق.. وجهت صحافية لبنانية تربطها علاقة «غير شرعية» بمتنفذ سوري كبير تهمة خطيرة للمعارض الوطني السوري «ميم»، فقالت، بل كتبت، أنه التقى، في قبرص، مع مروان حمادة «من جماعة ١٤ آذار».. وقبض منه نقوداً، لقاء تآمره على النظام السوري المُمَانع.

كان الأستاذ «ميم»، يومئذ، «already» في المعتقل، لسبب آخر، فطلب من المحامي العام الأول بدمشق السماح له برفع دعوى

«كذب وافتراء» على الصحفية التي صَدَّرَت الأكذوبة، ودليله إلى ذلك أن التأشيرات الموجودة على جواز سفره تثبت، على نحو قاطع، أنه لم يدخل إلى الأراضي القبرصية قط!

فكانت معالجة المسألة، من قبل المتنفذ السوري الكبير «عشيق الصحفية»، أكثر غرابة من المسألة نفسها، وذلك بأن أوعز إلى من يهمه الأمر، بتمديد سجن «ميم»، إلى أن يتخلى عن فكرة إقامة الدعوى على «صاحبته» الكذابة!. وكلما أخلي سبيله، كان يستلم أدواته الشخصية، ويهم بمغادرة السجن، فيساله مدير السجن:

- أما زلتَ مصراً على رفع دعوى على الصحافية فلانة؟

فيقول: طبعاً.

فيقول له: ارجع لجوه!

حظوظ

بالمناسبة.. إن المناضل «ميم» يمتلك حظاً يفلق الصخر.. فلقد حصل في سوريا، مراراً، أن أُخْلِيَ سراحُ معتقل، وفي اللحظة الأخيرة، ولأسباب مجهولة، أعيد «لجوه».. وفي معظم الحالات كانوا ينسونه «جوه».. مدى الحياة!.. وأما هو، فلكونه محظوظاً، تذكروه، وأخلوا سبيله بعد بضعة أشهر فقط!

إعلام الأزمات

ترتفع نبرة الكذب في الإعلام السوري، أيام الأزمات، حتى تبلغ معدلاتُه نسبة أعلى بكثير من معدلات الكذب القياسية المتعارف عليها عالمياً.. «الستاندرد».. ويصبح حالُه كحال كلب أليف، يلهو به الأولاد ويشدونه من أذنيه وذيله في أوقات الراحة والاطمئنان، فإذا ما توتر الجو،

وأحس بخطر يحدق بحياته، تراه يصبح جارحاً، ليكن الله في عون مَنْ يقع في مرمى أنيابه!

فالأشخاص الذين عارضوا نهج النظام السوري، بمجرد ما عبروا عن هذه المعارضة، أصبحوا- في نظر الإعلام السوري- خونة، تحريفيين، مضللين، مأجورين، مرتبطين بالخارج،... ليس هذا وحسب، بل إنهم أناس منحطون على الصعيد الأخلاقي.. فالمعارض فلان الفلاني- على ذمة الإعلام السوري- له علاقات جنسية شاذة «مأبون»، وعلان العلاني يمتهنُ الدعارة، والشيخ «سين» كان يضحك على النسوان ويعريهن ليستمتع بالفرجة على أجسادهن، والمعارض «صاد» قَوَّاد تخونه زوجته بعلمه ويتولى بنفسه أمر محاسبة زبائنها.. والمجلس الوطني السوري يسمى في الإعلام السوري «مجلس اسطنبول» هو مجلس «كَرَزَايات»، بمعنى أنه متآمر مع الأميركان على بلده «مثلما فعل حامد كرزاي الأفغاني»... و«الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة» سرعان ما صار اسمه «ائتلاف الدوحة»، و«ائتلاف العمالة»!!..إلخ.

(نتيجة منطقية: يستحيل أن يوجد إنسان سوري شريف، وطني، مستقيم، يعارض هذا النظام!)..

ثلاث جرايد

نشرتُ في كتابي «المستطرف الأزرق» طرفة تلخص حال الصحافة الحكومية السورية أيما تلخيص.. لذلك لا أرى بأساً من إعادة نشرها هنا.. وهذا نصها:

في حقبة زمنية سابقة لم يكن في سورية سوى ثلاث صحف هي: «البعث» وتصدرها القيادة القومية لحزب البعث، و«الثورة» و«تشرين» الحكوميتان التابعتان لوزارة الإعلام.

وكان رؤساء تحرير الصحف الثلاث يتبارون في سبيل جعل الخطاب الإعلامي «موحداً»، ويكون ذلك بدعم الأقلام الصحفية التي تتقن تأدية الخطاب الموحد، واستبعاد أية مادة صحفية مهمة، تحت طائلة المسؤولية! فإذا مرت مادة مهمة، بالخطأ، فإن المسؤول عن هذا الخطأ كان يُحاسَب على الفور من مبدأ «دق الحديد وهو حامٍ!». وإذا تسرب إلى إحدى هذه الصحف صحفي متميز، سرعان ما يحلقون له على الصفر، ثم يتباهون فيما بينهم بهذه «الحلاقة»!

وكان أحد المواطنين قد اعتاد على شراء الصحف الثلاث، كل يوم، اعتياداً يصل إلى حدود الإدمان..

وفي ذات يوم توقف ذلك المواطن عند أحد بائعي الصحف وقال له:

- إذا سمحت اعطني البعث والثورة وتشرين.

قال البائع: عفواً أستاذ، اليوم البعث وتشرين معطلتان.

قال المواطن: بالله؟ إذن أعطني ثلاث نسخ من «الثورة»!

جرايدنا

الطرفة التالية كان محسوبُكم- مؤلفُ هذا الكتاب- بطلَها.

فمنذ الثمانينيات، حينما اتجهتُ إلى الكتابة القصصية، ثم الصحفية، فالإذاعية، فالتلفزيونية،.. وأنا أتحرك ضمن قناعة راسخة، مفادُها أن الصحف السورية، والإذاعة السورية، والتلفزيون السوري.. إنما هي مؤسسات يمتلكها الشعب السوري، ويمولها من حُرِّ ماله.. فكنت أكتب لها.. وأنا واحد من الكتاب الذين اشتهروا انطلاقاً من الصحافة السورية.. وليس من خلال الصحافة العربية.

ولئن كان النظام الديكتاتوري القائم سعى، ويسعى دائماً، لتحويل هذه المؤسسات إلى ملكية خاصة به، فإن هذا لا يفقدنا- نحن الكتاب السوريين- الحق في النظر إليها، والتعاطي معها، بوصفها مؤسسات وطنية تمتلكها الدولة، وليس النظام.

مع بداية الثورة تنابذنا، أنا وهذه المؤسسات، «أنا نبذتُها وهي نبذتني في وقت واحد».

وكنتُ أكتبُ على صفحتي على الفيسبوك منشورات أعبر فيها عن رأيي بالديكتاتورية السائدة البائدة.. وأحيي الشعب السوري الذي استجاب لرياح التغيير، وقرر التخلص من هذا النظام العائلي الاستيطاني المستبد الذي يذهب بالبلاد نحو الدمار.. وإذا بواحد من «نبيحة النظام» يُفاجأ بموقفي، ويكتب لي التعليق التالي:

- هذا أنت يا خطيب بدلة؟!! آخ منك يا أكّال يا نكّار، يا خسيس!.. أنت تكتب في جرايد«نا»، وإذاعت«نا»، وتلفزيون«نا»، وتقبض لقاء ذلك من أموال«نا».. والآن قاعد تنتقد«نا»، وتطالب رئيس«نا» بالرحيل؟ يا عيب الشوم عليك يا خطيب بدلة، تفو عليك!

عمران الزعبي

تولى المدعو عمران الزعبي وزارة الإعلام في الوزارة الثانية التي شكلها النظام الساقط أثناء حرب الإبادة التي شنتها إيران، بالتعاون مع حزب الله ونظام الأسد وكتائب أبي الفضل العباس، على الشعب السوري.

تحدث الزعبي، في شهر تشرين الأول ٢٠١٢ عن الجيش العربي السوري الذي يلاحق الثوار من بيت إلى بيت، فاستبشر السوريون باقتراب سقوط النظام.. فالقذافي تحدث عن ملاحقة عصاباته لأبناء الشعب «زنقة زنقة دار دار» قبيل سقوطه في المجرور بزمن قليل.

تطهير

ويحكى، على سبيل التنكيت، أن عمران الزعبي قد سار، من دون أن يدري، على خطا وزير الدفاع الأسبق مصطفى طلاس، إذ عقد مؤتمراً صحفياً موسعاً قال فيه:

«سنطهر» البلاد، بعزيمة شعبنا، وبتماسك جيشنا العربي السوري الباسل، من العصابات الإجرامية المسلحة.. و«سنطهرها» من المتآمرين، و«سنطهرها» من أتباع حَمَد بن جاسم «وزير خارجية قَطَر» وبندر بن سلطان «رئيس المخابرات السعودية» وجماعة ١٤ آذار، و«سنطهرها» من الوهابيين والجهاديين والتكفيريين والعراعرة.. «وفجأة علا صوته حتى بلاغ مرتبة الصراخ وقال» و«سنطهرها» من «الأردوغانيين» ذوي النزعة العثمانية.. و«سنطهرها»..

وفجأة توقف عن الكلام.. ذلك أن واحدة من السيدات اللواتي كن يحضرن المؤتمر، تقدمت منه، ومعها طفل رضيع، حررته من «الحفوضة» وقدمته له وهي تقول:

- الله يخليك يا أستاذ عمران الصفوري.. و«طهر» لنا هذا الولد بطريقك!

الرحابنة والاستبداد

لم يسلم أحد من ذراع الإعلام السوري السكندري (نسبة إلى أحمد اسكندر أحمد)، ففي فترة من الفترات امتدت هذه اليدُ إلى تراث الأخوين الرحباني والسيدة فيروز العظماء لتشوهه بطريقة عجيبة!..

يجدر بنا أن نقول- استطراداً- إن الرحابنة يكرهون الاستبداد، لسبب جد بسيط، هو أن مشروعهم الغنائي قائم، برمته، على فكرة تحرير الإنسان من الاستبداد والاستعباد، وإشاعة الحرية في المجتمع الشامي،

والمجتمع العربي عموماً، ولم يسبق لهم أن غنوا لمستبد (جائر أو عادل، أو بطيخ مبسمر)!

وفي ذات مرة، بأواخر السبعينيات، كان مقرراً أن يقدموا حفلاً في القاهرة، وفي لحظة فتح الستارة طَلَبَ منهم متعهدُ الحفلة التريث لأن الرئيس «محمد أنور السادات» في طريقه إلى المكان، لحضور الاحتفال، وقد تأخر موكبه بسبب بعض الترتيبات الأمنية، فغضب عاصي الرحباني رافضاً أن يكون توقيت (الفني) خاضعاً لتوقيت (السياسي)، وألغى إقامة الحفلة في تلك الليلة.

الإعلام السوري كان، في ذكرى الحركة التصحيحية، يضع صورة ثابتة لحافظ الأسد، مع إضافة بعض الغيوم فوق رأسه (على برنامج الفوتو شوب)، وينطلق من الخلفية صوت فيروز وهي تغني: يا قمر مشغرة، ويا بدر وادي التيم، يا جبهة العالية ومْيَزَّرَة بالغيم!

(وكأن فيروز كانت تقصد هذا المجرم حينما غنت لقمر مشغرة وبدر وادي التيم)!

سوا ربينا

«محمود عبد الكريم»، وهو شخص معروف في المبنى (المقصود: مبنى الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون) بأنه «واصل».. وذو علاقات وطيدة مع أعلى مستويات القصر، وشعب المخابرات،.. استحدث، في فترة الاحتلال السوري للبنان، برنامجاً إذاعياً أطلق عليه اسم «سوا ربينا»، ثم نُقِلَ البرنامج إلى التلفزيون السوري، فكان يقدم ثبتاً بالنشاطات السياسية والثقافية والإعلامية التي كانت المخابرات السورية تحاول من خلالها إخضاع اللبنانين، و«العَجْق» على رقابهم.. والبرنامج مهمته أن يُظهِرَ ذلك على أساس أن اللبنانيين يفعلون ذلك بسبب حبهم للقائد

أولاً، ومن منطلق أخوة الشعبين السوري واللبناني ثانياً..

وكانت شارة البرنامج تتضمن صوت السيدة فيروز وهي تغني (سوا ربينا- سوا مضينا ليالينا)..

الشَّعْب أم العَرَبَانة؟

لست متأكداً مما إذا كان محمود عبد الكريم وبقية طاقم الإعداد والتنفيذ والإخراج كانوا يعلمون أن هذه الأغنية غنتها فيروز ضمن مسرحية «الشخص» وكانت تخاطب فيها «العَرَبة» العتيقة التي كانت تبيع عليها البندورة، بعدما تم مصادرتها!..

ومن ثم يستطيع المرء أن يسأل: كم كان يلزم للإعلام السكندري- الذي يقوده محمود عبد الكريم هذه المرة- مِنَ المقدرة على التزوير لنقل الحالة من (إنسانة فقيرة ترثي عربتها العتيق) إلى حالة شعبين متحابين؟

عندي ثقة

اليوم يكرر الإعلام السكندري المهزلة نفسها. فعلى قناة «شام إف إم» ترى صورة ثابتة لجنود سوريين رافعي الرؤوس بعد خروجهم من مجزرة ارتكبوها ضد فئة من فئات الشعب السوري، وصوت مذيعة تقول إن الشعب السوري يقول للجيش العربي السوري: (ونسمع فيروز تغني: عندي ثقة فيك)!

اعتذار

باسمي، واسم السوريين الذين يحبون فيروز والرحابنة نعتذر عما فعله «النبيحةُ»..

الخارجية السورية

قال لي أحد الأصدقاء إنه، كلما تَفَكَّرَ بتصرف من تصرفات نظام الممانعة الأسدي، تعتريه الدهشة ويسيطر عليه الذهول، والاستغراب..

فهذا «النظام» يرد على أية دولة تُعطي رأيها بعملية القتل المُمَنْهَج التي يرتكبها بحق الشعب السوري بعبارة: «هذا شأنٌ سوري داخلي، لا يحق لأحد التدخل فيه»..

وإذا وقعت أية حادثة «داخلية» على الأرض السورية تسارعُ «الخارجية» السورية إلى عقد مؤتمر صحفي، لتوضيح ملابسات الحادثة «للخارج»!.. وتكذيب روايات «المتآمرين» و«المغرضين» الذين يروون تفاصيل الحادثة بما لا يخدم نظام الممانعة.

وتساءل صديقي: لماذا يفعل ذلك يا ترى؟

قلت له: برأيي المتواضع أن سبب ذلك هو أن «نظام الممانعة» المذكور لا يشتري السوريين ومشاعر السوريين بنصف فرنك سوري مبخوش، وقد اعتاد على التزلف للدول العظمى، سواء أكانت صديقة له أو عدوة، والنظر إلى الشعب السوري باحتقار.. والمدعو بشار الأسد لم يتوجه بخطاب مباشر إلى الشعب السوري منذ توليه السلطة أواسط سنة ٢٠٠٠، ولم يفعل ذلك خلال الأزمة التي ابتدأت في «١٨ /٣ / ٢٠١١».

شيء تافه

في أوائل شهر آب أغسطس من سنة ٢٠١٢ وقعت في سوريا أحداث مهمة للغاية، أثرت سلبياً على نظام الممانعة الأسدي.

وكانت «الخارجية» السورية ترد على هذه الأخبار، دائماً، بشيء من الاستهتار، والازدراء، والاستخفاف..

قالوا، مثلاً، في الأخبار: إن الجيش الحر استولى على المركز الحدودي في باب الهوى..

قالت الخارجية: معبر باب الهوى مغلق، من تلقاء نفسه، منذ حزيران «يونيه» ٢٠١٢.. وهو في الأساس معبر لا قيمة له!!!!! «هو، في الحقيقة، أهم معبر حدودي سوري على الإطلاق».

قالوا: ثمة سفراء انشقوا عن النظام.

قالت الخارجية: إن «عبد اللطيف دباغ»، سفيرنا في الإمارات العربية المتحدة، ليس على رأس عمله منذ حزيران «يونيه».. و«لمياء الحريري» لم تكن سفيرتنا في قبرص، بل إنها تقوم بعمل السفير بالنيابة، ريثما تعين القيادة الحكيمة سفيراً معتمداً. وأما «محمد تحسين الفقير»، فليس سوى موظف إداري صغير في سفارتنا بسلطنة عمان!

الغابة

إن طريقة الإعلام السوري المذكورة أعلاه تذكرنا بنكتة رويت عن رجل جاء أحدُ أصدقائه وأخبره بأن زوجته ذهبت مع «الكهربجي» فلان إلى الغابة!

وأضاف الصديق: إذهب، إن كنت لا تصدق، إلى الغابة، وتحقق من الأمر بنفسك.

قال الرجل: أولاً هذا «فلان» ليس بكهربجي، عهدتُ إليه، ذات مرة، بتصليح لمبة «نيون» كانت تعمل بشكل متقطع، وحينما وضع يده فيها احترقت وتعطلت على نحو نهائي..

وثانياً: أنت- يا صديقي- تحب المبالغة والتهويل، فأنا أعرف المكان الذي قصدتَه معرفة جيدة، فهناك لا يوجد سوى شجرتين صغيرتين، إحداهما جذعها مكسور ومربوط بخيط لئلا تقع الشجرة على الأرض، والثانية صغيرة هزيلة، أوراقُها مصفرة.. فمن أين جاءت الغابة؟!

جهاد المقدسي

كثرت التخبطات التي يقع فيها وزير خارجية النظام السوري«وليد المعلم»، خلال مؤتمراته الصحفية، فمرة يقول إنه سيمحو أوروبا عن الخريطة، ومرة ثانية يطلب من دول العالم أن تتعلم السباحة قبل أن «تخوض» في الشأن السوري، ومرة أخرى يعرض على المشاهدين شريطاً لإرهابيين سوريين سرعان ما يتضح أنهم ليسوا «إرهابيين»، وليسوا «سوريين»، وإنما هم لبنانيون من «جبل محسن».. الأمر الذي اضطر الجهات المخابراتية العليا في سورية لأن توعز لمن يهمه الأمر بتخصيص شخص آخر يتولى قراءة الأكاذيب التي تصدر عن «الخارجية» تباعاً فيما يتعلق بالشؤون «الداخلية» السورية.. ووقع الاختيار، إذ ذاك على السيد جهاد المقدسي.

المناوب

أبناء الشعب السوري، بعد لقاءين، أو ثلاثة لقاءات صحفية عقدها جهاد المقدسي، أطلقوا عليه لقب «الكذاب المناوب»!

(خروج جهاد المقدسي من سوريا لاحقاً على نحو يشبه «الانشقاق» لا ينفي أنه كان يعمل بهذه الصفة حينما كان على رأس عمله.. والظاهر أن «الوظيفة» في سوريا هي التي تكذب، وليس الشخص، فبعد خروجه من البلد تولى السيد فيصل المقداد صفة «الكذاب المناوب»، وكان في مستوى المسؤولية تماماً)!

كيماوي يوق

في أواسط شهر آب ٢٠١٢، حينما بلغت الحملة التي يشنها النظام الديكتاتوري السوري على الشعب السوري ذلك الحد الفظيع المتمثل

باستخدام القاذفات المقاتلة في قصف المدن الآهلة بالسكان، بدأت الولاياتُ المتحدة وإسرائيل تُبديان تخوفات بسيطة من احتمال أن يلجأ نظام الأسد إلى استخدام الأسلحة الكيماوية التي يمتلكها ضد الشعب السوري.

ولأن النظام السوري يعتبر رضا الولايات المتحدة وإسرائيل من رضا الله والوالدين فقد أوعز إلى «الكذاب المناوب» جهاد مقدسي أن يعقد مؤتمراً صحفياً يعلن فيه أن نظام الممانعة الأسدي لن يستخدم الأسلحة الكيماوية ضد الشعب السوري مهما كلف الأمر.

أحد السوريين الذين كانوا يشاهدون وقائع المؤتمر الصحفي التفت نحو أصدقائه وقال لهم:

- الله يكتر خير هذا النظام.. لقد أعفانا من الضرب بالكيماوي.. ماذا تريدون أحسن من هذا الشي؟!!

(وكما يعلم الجميع، ضرب النظامُ الغوطة الشرقية بالكيماوي، في آب «آغسطس» ٢٠١٣، وأدى ذلك إلى تصعيد أمريكي، وتهديد بالضربة، ثم إذعان النظام السوري، وتسليم ترسانة الأسلحة الكيماوية بذل فير مسبوق في التاريخ)!

فلسفة كيماوي الغوطة

السيدة الدكتورة «بثينة شعبان»، نائبة بشار الأسد ومستشارته، أدهشت القاصي والداني، والعدوَّ قبل الصديق، حينما أدلت، يوم (٢٠١٣/٩/٤) بتصريح وضعت يدها من خلاله على السر الدفين الذي دوخ العالم والبشرية ومجالس الشيوخ والبرلمانات والكونجريسات الأوربية والأمريكية، المتعلق باستخدام الكيماوي في الغوطة الشرقية، فقدمت لهم رواية تتمتع بقدر كبير من الوضوح، ودقة الملاحظة، والإصابة.. هذا ملخصُها:

لقد اختطفت «داعش» (الدولة الإسلامية في العراق والشام)، بالتعاون مع الوهابيين من جبهة النصرة، المنبثقة عن تنظيم القاعدة، أطفالاً من قرى الساحل، وبالتحديد من أطفال إخوتنا العلويين، وعبأتهم في حافلات النقل العام، وسارت بهم عبر مئات الحواجز الأمنية، التابعة منها للجيش العربي السوري الباسل، أو للجهات الأمنية المختصة، وحواجز حزب الله وكتائب أبي الفضل العباس التي جاءت لتحارب إسرائيل في القصير وحمص وتلكلخ، وحواجز الجيش الحر التي ترابط عليها العصاباتُ الإجرامية المسلحة، حتى وصلت إلى الغوطة الشرقية، ووزعت هؤلاء الأطفال الأبرياء على بيوت أهل الغوطة، توزيعاً عادلاً، وقالت لهم ناموا يا ابني!!.. والشيء الجدير بالذكر أن أهالي الأطفال لم ينتبهوا لغياب أطفالهم- مع أن الرفيقة بثينة انتبهت- وفي الصباح، وجهت داعش صواريخها المحملة برؤوس كيماوية وعبوات كبيرة من غاز السارين، إلى حيث ينام الأطفال الـ ٤٠٠، فقتلتهم، وقتلت معهم ١٠٢٩ مواطناً آخرين، وقد فعلت ذلك لهدف حقير للغاية، وهو اتهام النظام السوري الممانع بهذه الفعلة الشنيعة، وتوجيه الدعوة إلى الاستعمار الخارجي ليأتي ويضرب سوريا الصامدة.

الفصل الثالث- لقطات ونهفات

الأب والابن

بعد مضي عدة أشهر على بداية ثورة «١٨ آذار- مارس ٢٠١١» قال أحد المحللين:

- الحقيقة أن الجنرال حافظ الأسد الذي توفي يوم «١٠ حزيران- يونيو ٢٠٠٠» استمر يحكم سورية حتى تاريخ «١٧ آذار- مارس ٢٠١١».. فوقتئذ اضطر وريثُه بشار الأسد لأن يتولى شؤون الحكم بنفسه! فاكتشفنا، نحن السوريين، أن الأب «حافظ» والابن «بشار» يشتركان في خاصية كبرى، وهي العداء للشعب السوري، والنظر إليه على أنه «قطيع» من السائمة.. وأنهما يتباينان في خاصية أخرى، وهي أن الأب كان ذكياً إلى حد الدهاء، وأن الابن غبيٌّ على نحو مُرَكَّز، وشخصيتُه مهزوزة.

إرحل

رفعت تلميذةٌ في المرحلة الابتدائية لافتة مصنوعة من الورق المقوى، كتبت عليها رسالة موجهة إلى رئيس الجمهورية، هذا نصها: «إرحل! أريد أن أرجع إلى مدرستي»!

وكتب تلميذة أخرى: إرحل حتى أستطيع أن أفهم دروسي!

وألف الثائر الحَمَوي ابراهيم القاشوش أغنية «إرحل يا بشار».. التي اشتهرت، وأصبحت نشيداً للثورة السورية في كافة المحافظات.

يلا إرحل يا بشار

كلمات الأغنية:

يللا إرحل يا بشار.. يللا إرحل يا بشار
يا بشار مانك منا
خود ماهر وارحل عنا
شرعيتك سقطت عنا
ويللا إرحل يا بشار

يا ماهر ويا جبان
ويا عميل الأمريكان
الشعب السوري ما بينهان
ويللا إرحل يا بشار

يا بشار ويا كذاب
تضرب أنت وهالخطاب
الحرية صارت عالباب
ويللا إرحل يا بشار

يا بشار حاجة تدور
دمك في حماه مهدور
وخطأك مانو مغفور
ويللا إرحل يا بشار

استحكي الفكرة حرامي
شاليش وماهر ورامي
سرقوا خواتي وعمامي

ويللا إرحل يا بشار
يا بشار طز فيك
وطز باللي بيحييك
ما حدا بيطلّع فيك
ويللا إرحل يا بشار

يا بشار ويا مندس
تضرب أنت وحزب البعث
روح صَلِّحْ حرف الإس
ويللا إرحل يا بشار

سجن

وفي إحدى المدن السورية رفع أحدُ التلاميذ لافتة كتب عليها: لماذا حولتم مدرستي إلى سجن؟!

«ملاحظة: مؤكد أن هذا التلميذ، حينما رفع هذه اللافتة في بداية الثورة، لم يكن يعرف أن النظام الديكتاتوري العائلي الكريه سوف يُحَوِّلَ سوريا، بالتدريج، إلى سجن، بل إلى معتقل كبير، وساحة معركة مفتوحة لمختلف قذائف الأسلحة الثقيلة الفتاكة، بل وأسلحة الدمار الشامل».

أشرف لك

درعا.. الأسابيع الأولى للثورة..

بعد مظاهرة حاشدة، حضر رجالُ الأمن، واعتقلوا مجموعة من الشبان، وأصعدوهم إلى حافلة مخصصة لنقل المعتقلين.. فجأة هجمت سيدة درعاوية «طحشة» على الحافلة، وصرخت برجال الأمن أن ابتعدوا من هنا، فابتعدوا، فصعدت هي إلى الحافلة، وشرعت تُنْزِلُ

الشبان المعتقلين واحداً واحداً، وهي تقول لهم بعجالة:

- يللا عين الخالة يللا.. انزلوا ورَوَّحُوا عالبيت ركض.

وكان ثمة شاب جالس على أحد المقاعد، قالت له المرأة: انزل.

رفض.

شدته من قميصه لينزل غصباً عنه، رفض.

قالت له: ولد.. أيش قصتك؟ ليش ما تنزل؟

قال: يا خالة أنا من الأمن!

فقالت: وإذا كنت من الأمن؟ قم انزل مع هالشباب، أشرف لك!!!

شو بدكن يا حجة؟

كفرومة.. الأسابيع الأولى

في بدايات الثورة، اجتاح الجيش العربي السوري الباسل معظم القرى المحيطة بمدينة «معرة النعمان»، وبضمنها قرية «كفرومة».. ونزل العسكر في أهل القرية قتلاً وتدميراً وحرقاً.

وبعد أن حقق الجيشُ نصراً مؤزراً على الناس العُزَّل، شعر «بعضُ» الجنود الأوباش «ليس كل الجنود أوباشاً، بالطبع» بالنشوة، وشرعوا يضربون بالعصي على جنبات ناقلات الجنود ويصيحون بصوت واحد: أبو حافظ.. أبو حافظ.. أبو حافظ..

وفجأة لمح جنديٌّ «وبشٌ» امرأةً فلاحة مسنة تعمل في حقلها بجانب الطريق، فصرخ بالسائق:

- وقف وقف.. وقف لنشوف الحجة ونسألها كم سؤال.

وقال لها بلغة متعالية، عامرة بالاحتقار:

- شو حجة؟ لسه بدكن حرية؟

فقالت له المرأة بجدية تامة:

- أنت غلطان يا ابني، أهل «المعرة» بدهم حرية.. نحن أهل «كفرومة» نريد إسقاط النظام وبس!.

الوضع الطبيعي

الوضع «الطبيعي» للسوريين- في نظر النظام المستبد الحاكم- هو أن يعيشوا بذل، ومهانة، وكبت، وخوف، وأن يُملى عليهم كل شيء متعلق بحياتهم، وحاضرهم، ومستقبلهم، إملاء، دون أن يكون لهم الحق بأي احتجاج، أو اعتراض، أو امتعاض، أو تذمر..

وأما الوضع «الشاذّ» فهو أن يطالبوا بالحرية، وبتداول السلطة سلمياً، مثلهم مثل غيرهم من سائر شعوب الأرض!..

بدكن حرية؟

وبناء على ما تقدم..

دأبت الفضائياتُ المختلفة على عرض فيديو لمجموعة من الشبان السوريين وقد أُلقوا على الأرض، وصعد بضعُ جنود، الضئيلُ فيهم أضخمُ من البغل الشَموس، فوق أجسادهم، بأقدامهم الثخينة، وشرعوا يعجقونهم بحقد غريب، وهم يقولون لهم:

- بدكن حرية؟! خذوا هذه الرفسة كرمى للحرية..

بدكن العرعور؟

لا شك في أن المعاناة الكبرى التي تعرض لها النظام السوري خلال الثورة تعود إلى الشيخ الحَمَوي المقيم في السعودية منذ ما ينوف على الثلاثين عاماً، محمد عدنان العرعور الذي خصصت له بعض القنوات

السعودية كـ «الوصال» و«الصفا» و«البيان» وقتاً طويلاً، مساء كل يوم خميس، ليخاطب خلاله شريحة من الثوار السوريين الذين يثقون به، ويتقيدون بفتاواه، ويعملون بنصائحه، وتوجيهاته..

لقد شكل العرعور - بمعنى آخر - للنظام السوري وأزلامه عقدة نفسية صعبة، فأصبحوا كلما قبضوا على ثائر، حتى ولو كان شيوعياً، أو علمانياً، أو إسلامياً ينتمي إلى تيار آخر، يقولون له، مع الرفس واللطم والبصاق في وجهه:

- أنت من جماعة العرعور ولا حقير؟

وأما أزلام النظام الإعلاميون الذين عُرفوا باسم «النبيحة»، فأخذوا ينحتون من اسم العرعور شتيمة للثوار، فيقولون عن الثوار:

- هؤلاء المخربون، الإرهابيون، العملاء، المأجورون، البندريون «نسبة إلى بندر بن سلطان»، الحَمَديون «نسبة إلى وزير خارجية قَطَر حمد بن جاسم»، العراعرة «نسبة إلى العرعور».. إلخ.

العفو عند المقدرة

بعد بضعة أسابيع على بداية الثورة ظن النظام السوري وشبيحتُه ونبيحتُه أن الفرج قد خرج لهم من قلب الضيق،.. وذلك حينما فتحوا التلفاز على محطة «الوصال» مساء أحد أيام الخميس، فوجدوا أن العرعور غائب، ففرحوا واستبشروا،.. وزاد سرورُهم أكثر حينما استمر غيابُه زمناً طويلاً، بسبب مرض أقعده.. فظنوا أنهم انتهوا منه إلى الأبد.

ولكن.. فجأة ظهر العرعور.. على قناة «الجزيرة- مباشر» هذه المرة.. وأخذ يصول ويجول في الحديث عن الثورة السورية المتعاظمة، وموقف النظام الآخذ بالضعف والتراجع.. إلى أن خطرت له فكرة مهمة جداً فقال للمذيع:

- أخي.. اسمع.. لدي اقتراح.. أنا الآن بإمكاني أن أقول لبشار الأسد.. تنازل الآن عن الحكم.. وأنا مستعد لأن أعفو عنك!!!!!!

وعلى الفور كُتب على الشريط الإخباري السفلي:

عاجل: الشيخ محمد عدنان العرعور يعفو عن بشار الأسد!

حكمة الحمار المحرر

تناقلت وسائلُ الإعلام خبراً مفاده أن الحكومة السورية ستعطي لأهل كل «شبيح» يُقتل في المعارك عنزتين..

إثر نشر هذا الخبر، كتب الحمار المحرر في مجلة «كش ملك» الإلكترونية ما يلي:

يخرب بيت الحالة التي وصلنا لها.. يحكمنا آلُ «الأسد»، ورئيسُهم يلقب الـ «بطة»، ولما يموت شبيح يعطون لأهله بدلاً عنه «عنزتين»، ورئيس اتحاد الكتاب حسين جمعة معه شهادة دكتوراه بأطروحة عنوانها «الحيوان» في الشعر الجاهلي، وحينما يقع مواطن سوري في أيدي رجال المخابرات يرفسونه مثل «البغال»، وأقل قلمة يقولونها له: بدك حرية يا «كر»؟ وأثناء المشاورات التي يجريها رئيس الحكومة المكلف، بمجرد أن يفكر بحقيبة الإعلام يتصل بي ويعرضها علي، وأنا دائماً أرفض، لأني لا أحب الزعامة.. وكلما شاهدت برنامجاً يستضيف محللاً استراتيجياً، ألاحظ أنه من معارفي..

الله لا يوفقك يا حافظ «الأسد»، عملت لنا البلد حديقة حيوانات؟!

أنا أحب سوريا

تأخرت مدينة إدلب عن ركب الثورة السورية العظيمة مدة لا يُستهان بها.. فالتواجد الأمني و«التشبيحي» الكثيف فيها، والخوفُ الذي

عشش في قلوب أبنائها خلال نصف قرن من حكم البعث و«التصحيح»، وذكريات البطش التي تعرض لها شعبُها في الثمانينيات، جعلت إقدام الأهالي على الخروج في مظاهرات الاحتجاج يبدو وكأنه ضرب من التهور، بل الجنون.

الشاب ميم «وهو مهندس زراعي، وابن عائلة كريمة».. لم ينجح، خلال تلك الفترة، في إقناع أحد من أصدقائه ومعارفه بالتظاهر، فما كان منه إلا أن وقف بعد صلاة الجمعة، أمام مسجد أبي ذر الغفاري، في مكان مرتفع، ورفع كرتونة كان قد كتب عليها بالبنط العريض: أنا أحب سوريا!

هاجمه الشبيحة، بالسواطير، ودخل بينه وبينهم بعض الناس، فساعده ذلك على الفرار.. وفيما بعد، اعتقل ميم، واتهم بأنه وزير دفاع الجماعة السلفية «المزعومة»، وتعرض لتعذيب لا تطيقه الجبال..! ثم أطلقوا سراحه. وأصبح من أعمدة الثورة في إدلب.

لا نريد حرية

مجموعة من الشبان الآخرين، عددُهم خمسة تقريباً، بعد أن صلوا الجمعة في «جامع شعيب» بحي «الضبيط» في إدلب، وقف واحد منهم، وصاح: الله أكبر حرية.. فشاركه الآخرون في الهتاف.. وإذا بمجموعة كبيرة من الشبيحة ينقضون عليهم، وأخذوا يضربونهم بالقبضات، ويرفسونهم بأرجلهم وهم يصيحون بهم:

- اسكتوا ولاه.. نحن ما بدنا «حرية»!

الخوف الخوف

كان «الخوف» هو العامل الأساسي لتأخر بعض المناطق في

الالتحاق بركب الثورة. فحينما خرج عدد من شبان جسر الشغور في مظاهرة، لأول مرة، كان هتافهم الرئيسي هو:

بدنا نحكي عالمكشوف

يا جسرية.. ليش الخوف؟

جَزَر

وفي إدلب التي عُرف أبناؤها بالفكاهة وخفة الظل، حمل الشبان الذين خرجوا في أول مظاهرة «وعددُهم لم يتجاوز الثلاثين شاباً» لافتة كتبوا عليها: لا تخافوا.. أوصينا لكم على جَزَر!

«ملاحظة أولى: أرادوا، بذلك، أن يُشَبِّهوا رفاقَهم الخائفين بالأرانب.. وهذا ليس تأنيباً، بل هو نوع من التشجيع المقرون بالمحبة، عسى أن يدب فيهم الحماس ويتخلوا عن الخوف.. وقد حصل هذا».

«ملاحظة ثانية: ثبت، بعد زمن قصير، وبالتجربة الحية، أن شباب إدلب لديهم مخزون من الشجاعة والوطنية لا ينضب».

الجمعة

معظم شهداء الثورة السورية سقطوا في أيام الجمعة، لأن مظاهرات الاحتجاج، في العادة، تخرج من المساجد بعد صلاة الجمعة.

فنان الشعب «علي فرزات» رسم «بشار الأسد» وهو يقتلع من الروزنامة ورقة يوم الخميس، وقد أبعد بصره عنها لئلا يراها!

جمعة حمصية

كتب مواطن حمصي على الفيسبوك، ما يلي:

يا جماعة، اليوم «الخميس ٧ / ٧ / ٢٠١١» صار معي موقف غريب. بعد ساعة من الهدوء في حي «باب السباع» ركبت البسكليت ورحتُ أعمل جولة في البلد. دخلتُ من الحارات حتى وصلت باب السباع، وشاهدتُ آثار الهجوم الأمني الوحشي على الحي.

تابعتُ طريقي حتى وصلتُ إلى المقبرة، فوجدتُ أناساً يحفرون قبوراً.

سألتُهم: كم شهيداً سقط اليوم؟

قالوا: واحد.

قلت لهم: ولكنكم تحفرون ثلاثة قبور!

قال لي أحدهم: صح.. ولكن.. بكرة جمعة!!

«ملاحظة: فيما بعد، تمكن جيشُنا العقائدي الباسل من قتل عدد كبير من أهل حمص، ومن تدمير ثلاثة أرباع أبنيتها ومنازلها، فجعلها خراباً صفصفا».

لا يصلي

إحدى المدن السورية - الأشهر الأولى من الثورة

لاحظ أحد الرجال أن ثمة شاباً يقف عند باب المسجد، وكان الشبان يدخلون المسجد، ويبقى هو واقفاً.. فتقدم منه وسأله:

- شو عم تعمل هون عمو؟

الشاب: أنتظر خروج الشباب من الصلاة لأشاركهم المظاهرة.

الرجل: ولماذا لا تصلي معهم؟

الشاب: عمو لا تؤاخذني.. أنا ما بصلي!

دعاء

تزامن حلول شهر رمضان «١٤٣٢ هجرية»، مع مطلع شهر آب «أغسطس» ٢٠١١ ميلادية، وكان قد مضى على بداية الثورة السورية ضد نظام بشار الأسد حوالي أربعة أشهر ونصف الشهر.

الصائمون شرعوا يرددون، في موعد الإفطار، الدعاء التالي: «اللهم أَعِنَّا على الصيام- والقيام- وإسقاط النظام!!».

«حماه» خط أحمر

وفي ذلك التاريخ، نفسه.. حذر رئيسُ الوزراء التركي «رجب طيب أردوغان» النظامَ السوري من التجرؤ على اقتحام مدينة «حماه»، لئلا تتكرر المجازر التي ارتكبها الأسد الأب «حافظ»، والأسد العم «رفعت» في حماه ١٩٨٢.. وقال إن حماه، بالنسبة لتركيا، خط أحمر!

لم يشترِ النظام السوري تصريحات أردوغان، وغير أردوغان، بنصف فرنك سوري مبخوش!.. اقتحم حماه، وغير حماه، غير مبالٍ ولا هياب.. واستمر يقتحم المدن، والأمصار، والبلدات، والقرى، والدساكر، والكفور، يقتل من يقتل، ويعتقل من يعتقل، ويدمر بيوتاً فوق رؤوس ساكنيها، ويسرق محتويات بيوت أخرى هجرها أصحابُها هرباً من بأس الجيش العربي السوري الباسل، ويحرق بيوتاً أخرى لا يعثر فيها على شيء يستأهل السرقة والتحميل والنقل.. إلى ما لا نهاية..

أهالي «كفرنبل»، التي أطلق عليها أهلُها، منذ دخول الجيش إليها «كفرنبل المحتلة»، رفعوا، في مظاهراتهم التي لم تتوقف قط، لافتتين، الأولى تقول:

نرحب بأي جيش عدا الجيش الإسرائيلي والجيش السوري!!..

والثانية: لا نسمح باقتحام «اسطنبول» من قبل الجيش السوري.. اسطنبول، بالنسبة لكفرنبل المحتلة، خط أحمر!

تأييد

على ذكر حماه ١٩٨٢.. روت الأديبة الحموية «منهل السراج»، على الفيسبوك، قصة طريفة و«موجعة».. سأنقلها لحضراتكم من ذاكرتي، بتصرف، فيما يلي:

بعد انتهاء القوات المسلحة الباسلة، وقوات الأمن، حماةُ الوطن والمواطن، من إزالة إحدى الحارات الحموية، بعدما قَتَلَتْ كلَّ مَنْ فيها، من مسلحي حزب الطليعة «الجانب المتطرف من جماعة الإخوان المسلمين»، وأهالي الحارة الآخرين من رجال، ونساء، وأطفال، وأجنة، وسُحبت الجثث، ونقلت إلى مكان آخر، وأزيلت أنقاض البنايات المهدمة.. لم يبق في المكان سوى أرض مستوية، وغبار.

بعد قليل حضرت شاحنات، وحافلات نقل ركاب، نزل منها عددٌ من المواطنين «لا يعلمُ أحدٌ من أين جيء بهم»، اصطفوا على أنساق، ورفعوا لافتات قماشية، ومشوا وهم يهتفون: بالروح بالدم نفديك يا حافظ!

أهلين

«ملاحظة: الطرفة التي سأرويها لكم فيما يلي كانت تحصل، نفسها، في كل المدن والقرى السورية، مع اختلافات بسيطة».

كان الرفيق «رشيد أخترِيني» عضو القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي يأتي إلى مدينة حلب أثناء احتفالات شعبها الأبيّ الصامد بالذكرى السنوية لقيام الحركة التصحيحية المجيدة التي قادها

الرفيق المناضل حافظ الأسد، ويأتي، هو نفسه، مرة كل سبع سنوات، ليتفقد مراكز الاستفتاء، ويرى بعينه التي سيأكلها الدود- بعد عمر طويل- كيف تنهمر ورقاتُ الاستفتاء التي كُتب عليها بالخط الأخضر «نعم للقائد الأسد» ضمن شقوق صناديق الاقتراع مثل زخ المطر.

وكان «اختريني» يُسْتَقْبَلُ، عند باب كل مركز «استفتائي»، بوصفه ممثلاً للقائد التاريخي، بحشد جماهيري كبير، يرافقه طبل وزمر.. ومجموعة من المواطنين الذين لا يتمالكون أنفسهم من شدة الفرح، فيجدلون المناديل البيضاء، وينزلون إلى الدبكة، والنساء تزغرد!

وفي آخر هذه الاحتفالية التي يسميها الدكتور عبد الرزاق عيد «همروجة» يعود الرفيق رشيد إلى دمشق، محملاً بمحبة أهل حلب للأب القائد، ودعواتهم له بطول العمر، والنصر على المؤامرات التي ما تنفك تحاك ضد القطر الصامد الذي يقوده سيادتُه..

توضيح:

الشيء الوحيد الذي لم يكن الرفيق أختريني يعرفه هو التالي:

كان مدير الشركة «ش» للغزل والنسيج قد أفرز حافلتين كبيرتين، مع ستين عامل وعاملة، من أعمار مختلفة، وأمرهم بخلع البدلات الزرقاء، وارتداء الثياب المدنية، وأن يلاقوا الرفيق أختريني، بحسب جدول تنقلاته بين مراكز الاستفتاء «الذي ورد إلى مدير الشركة، قبل يومين على الأقل، من فرع الحزب»، وأن يقوموا بواجب الاستقبال والتعييش والدبكة والزغاريد.. وأن يسارعوا بمغادرة المكان، والوصول قبله إلى المركز الاستفتائي التالي.. ليقوموا بالواجب!

«يعني أن الشباب والصبايا الذين كانوا يستقبلونه ويدبكون له عند مداخل صناديق الاستفتاء.. هم أنفسهم.. لم يتبدلوا»!

بندوق

أرسل إلي أحد الأصدقاء رسالة، من خلال صفحتي على الفيسبوك.. جاء فيها أنه يتابع ما أكتبه على بشغف «ملاحظة: هو مخطىء، بالطبع.. ومُضَلَّل».. وأنه يلاحظ، من خلال ما أكتب، أنني خبير، «وضليع» بالمفردات الشعبية، أعرفُ منشأها، ومدلولاتها، واستخداماتها..

وختم رسالته بالقول: لهذا أريد أن أسألك.. ماذا تعني كلمة «بَنْدُوق»؟

أجبتُه: صدقني،.. هذه الكلمة، بالذات، لا أعرف الكثير عنها.. ولكنني، البارحة، مررتُ بقناة «الدنيا» الموالية للنظام السوري، فوجدتُ رجلاً تُجْرَى معه مقابلة.. ينتقدُ خلالها الجيش العربي السوري الباسل، بسبب تقصيره في قمع الاحتجاجات التي تجري على الأرض، ويطالبه بالمسارعة إلى استخدام أقصى مراتب البطش ضدهم، وألا تأخذه بهم رحمة أو شفقة،... وبالأخص في مدينتي حمص وإدلب..

أظن، يا صديقي، أن هذا الرجل هو «البندوق»!

دعاية

رفع أهالي بلدة «حاس» التي تقع بين مدينة معرة النعمان وبلدة كفرنبل لافتة كتبوا عليها:

لسنا الوحيدين في مجال إسقاط الأنظمة الديكتاتورية.. ولكننا الأفضل!

الجزيرة

حينما سقط نظام الطاغية المتخلف معمر القذافي، قال أحد الظرفاء: لقد تحول الحديث عن معمر القذافي الآن من قناة «الجزيرة- مباشر».. إلى قناة «الجزيرة- وثائقية»!..

يومها رُفعت لافتات في بعض المدن السورية تطالب بتحويل بشار الأسد إلى «الجزيرة- وثائقية» هو الآخر.

ضحية

في مقابلة على قناة «m.t.v» يوم ١ / ٩ / ٢٠١١.. قال الكاتب الصحفي اللبناني خير الله خير الله: القذافي ذهب ضحية النظام الذي صنعه بنفسه، وأما بشار الأسد فذاهبٌ ضحية لنظام صُنع له من قبل غيره..

دانات

إن أهل محافظة إدلب الخضراء يسمون الأُذُن «دان».. وفي حالة الجمع يقولون «دانات»..

في أول مظاهرة بعد النزول الظريف لمعمر القذافي في فتحة المجرور، ثم قتله، شرعوا يهتفون مخاطبين بشار الأسد:

القذافي مات مات

عقبالك يا أبو دانات

تفجيرات الريحانية

خرجتُ من سوريا الحبية، مُكرهاً، في العاشر من آب أغسطس ٢٠١٢، واتخذتُ من مدينة «الريحانية» التركية المجاورة للحدود السورية مستقراً.

«الريحانية» بلدة آمنة، هادئة، معظم سكانها ينحدرون من أصول سورية، ويتحدثون العربية بطلاقة. فيها أعداد كبيرة من «المهاجرين» السوريين (أقول المهاجرين، لأن كلمة «اللاجئين» تعني المقيمين في المخيمات)، القادمين، بالأخص، من محافظتي إدلب وحلب، وقليل من أهالي حمص وحماة.

بتاريخ ٢٠١٣/٥/١١، حدث تفجيران كبيران في «الريحانية» أسفرا عن حوالي سبعين قتيلاً، منهم عشرة سوريون والباقي من أهل المدينة، وتهدمت أبنية، واحترقت سيارات كثيرة.. وخلال أيام قليلة أعلن رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان، بشكل رسمي، عن أن منفذي التفجيرين أتراك متعاونون مع نظام بشار الأسد.

كتبتُ يومها على صفحتي الفيسبوكية: لاحقني على الريحانية يا أبو دانات؟!

دولة الأمن.. أمن الدولة

في لقاء مع قناة «الحوار» الفلسطينية بتاريخ ١٦ / ٥ / ٢٠١١ قال المعارض السوري الدكتور محي الدين لاذقاني بالحرف الواحد:

- كل «دولة» في العالم تمتلك جهاز أمن. وأما في سورية.. فيوجد جهاز أمن يمتلك «دولة»!

شعار

أول شعار رفعه الشعب السوري كان «الشعب السوري ما بينذل».. ثم استبدل به شعار «الموت ولا المذلة».

دوار الموت

قبل حوالي ثلاثين سنة، قررت السلطاتُ المحلية في مدينة حلب إحداثَ دَوَّار كبير يكون بداية لمدخل حلب الغربي الرئيسي «طريق الشام»..

ومن فرط حرص الفرع الحلبي من النظام السوري المُمانع على حياة

الشعب السوري، فقد حفروا مكاناً للدوار، وسوروه، وتركوه، دون أن يكلفوا خاطرهم بوضع شاخصات ضوئية تطلب من السائق القادم إلى حلب- وخاصة في الليل- التمهلَ لئلا يصطدم بجدار الدوار..

ومضى أكثر من شهر على هذه الحالة، وفي كل يوم تأتي السيارات القادمة إلى حلب، مسرعة، فتفاجأ بوجود الجدار الدائري، وتصطدم به، وتخرج عن مسارها،.. ثم تأتي سيارات الإسعاف، وتُخرج جثث القتلى والجرحى، وتنقلهم إلى المشفيات والمقابر، ولا أحد يبادر إلى وضع شاخصة ربما كانت تكلفتها لا تتجاوز خمسمئة ليرة سورية..

أهالي حلب، سرعان ما أطلقوا على هذا الدوار «دوار الموت»..

وبقي يحمل هذا الاسم حتى سنة ٢٠١١، حينما أطلق عليه الشعب اسم: «دَوَّار الموت ولا المذلة»!

***

الفصل الرابع - القانون

سورية دولة القانون

حيثما تجولتَ في شوارع المدن الرئيسية السورية تعثر على ملصقات إعلانية فاخرة كتب عليها عبارات من قبيل:

سوريا دولة القانون.

أنا سوري.. إذن أنا أحترم القانون.

القانون يحمينا جميعاً.. لذلك.. نحن جميعاً نحترم القانون.

كما بثت وسائلُ الإعلام التابعة للنظام السوري إعلاناً مصوراً «سلوجون» فيه رجل يمشي في أحد الشوارع بمدينة سورية، ويجتاز لوحة تدعو إلى احترام القانون، ثم يتوقف، ويمسك اللوحة بكلتا يديه، بمحبة واحترام.. وإذ يجدها مائلة يسويها، لتأخذ لها الكاميرا لقطة واسعة، ويتابع طريقه بأكابرية بادية.

هذا الكلام، من الناحية النظرية، رائع، ولكن، تعالوا نستعرض بعض القوانين السارية المفعول في سوريا..

حالة الطوارىء

* أصدر مجلسُ قيادة الثورة «الذي قام بالانقلاب البعثي» الأمرَ العسكري رقم ٢ بتاريخ ١٩٦٣/٣/٨، القاضي بإعلان حالة الطوارىء في البلاد. أتبعه بإصدار المرسوم رقم «٦» المتعلق بـ «مناهضة

أهداف الثورة».

ملاحظة: بقي قرار إعلان حالة الطوارىء ساري المفعول حتى تاريخ كتابة هذه المقالة.. ذلك أن إلغاء قانون الطوارىء الذي حصل بتاريخ ٢٠١١/٤/١٩ كان عملاً إعلامياً دعائياً ليس إلا.

أمن الدولة

* في عام ١٩٦٨ صدر المرسوم «٤٧» القاضي بإحداث محكمة أمن الدولة العليا..

ملاحظة أولى: كان ذلك في عهد حركة ٢٣ شباط/ فبراير ١٩٦٦ التي قادها صلاح جديد ومجموعة من الضباط كان بينهم حافظ الأسد الذي تولى وزارة الدفاع التي اختصت بالهزيمة العسكرية والانسحاب الكيفي من الجولان..

ثم انقلب حافظ الأسد في أواخر ١٩٧٠ على رفاقه، وأودعهم السجون، واستولى على سوريا وحولها إلى جمهورية ديكتاتورية وراثية من الطراز الكوري الشمالي.

ملاحظة: حينما ألغيت محاكم أمن الدولة في سوريا بتاريخ ٢٠١١/٤/١٩.. تحت ضغط الثورة السورية الكبرى، قال أحد الخبثاء: أصبح الحال الآن، بعد إلغاء محكمة أمن الدولة، أحسن.. ذلك أن قتل السوريين وزجهم في المعتقلات، من دون محاكم، أسهل على نظام الأسد، وأسرع!

المخابرات العامة

* أصدر الرئيس السوري نور الدين الأتاسي المرسوم التشريعي رقم «١٤» لعام ١٩٦٩ المتضمن إحداث إدارة المخابرات العامة.

المادة «١٦» منه: لا يجوز ملاحقة أي من العاملين في إدارة أمن

الدولة بسبب الأعمال التي يقومون بها أثناء تنفيذ المهمات المحددة الموكلة إليهم إلا بموجب أمر ملاحقة يصدر عن المدير.

رفقاً بالطغاة

نصت المادة /٧٤/ من قانون التنظيمات الداخلية لإدارة أمن الدولة وقواعد خدمة العاملين فيها الصادر بالمرسوم التشريعي رقم /٥٤٩/ تاريخ ١٩٦٩/٥/٢٥ «عهد صلاح جديد أيضاً» على ما يلي:

لا يجوز ملاحقة أي من العاملين في إدارة أمن الدولة أو المنتدبين أو المعارين إليها أو المتعاقدين معها مباشرة أمام القضاء، في الجرائم الناشئة عن الوظيفة، أو في معرض قيام العامل بها قبل إحالته على مجلس التأديب في الإدارة واستصدار أمر ملاحقة من قبل المدير.

أمن البعث

* أصدر مجلس الشعب الذي عُين أعضاؤه بتوجيهات من القائد التاريخي حافظ الأسد قانون أمن حزب البعث العربي الاشتراكي رقم «٥٢» لعام ١٩٧٩.

إعدام بسبب الرأي

*أصدر مجلس الشعب الذي عُين أعضاؤه بتوجيهات من القائد التاريخي حافظ الأسد «نفسه» القانونَ رقم «٤٩» الذي يحكم بالإعدام على من ينتمي، مجرد انتماء، إلى جماعة الإخوان المسلمين، وبقي هذا القانون ساري المفعول حتى هذه اللحظة «٢٠١٣».

ومن الأشياء التي تجعل خصيتي المرء تتدليان من فرط الدهشة هو أن هذا القانون صدر بأثَر رجعي!!.. فإذا كان زيدٌ من الناس قد انتسب إلى جماعة الإخوان المسلمين في سنة ١٩٥٦، فرضاً، وانسحب رسمياً

من الجماعة في أواخر سنة ١٩٧٢، وأمضى فترة لا بأس بها مستنكفاً عن العمل السياسي، ثم استطاع الرفاق المناضلون من جماعة الرفيق خالد بكداش إقناعه بالانتساب إلى الحزب الشيوعي، فانتسب في سنة ١٩٧٧، وأصبح «في نظر الإخوان المسلمين» شيوعياً مارقاً، خاسئاً، زنديقاً، فإن القانون ٤٩، مع ذلك، يحكم عليه بالإعدام!

حماية المجرمين

بتاريخ ٢٠٠٨/٩/٣٠ أصدر بشار الأسد المرسوم التشريعي رقم /٦٩/ المتضمن تعديل قانون العقوبات العسكرية في سوريا.

التعديلات حصرت ملاحقة عناصر الشرطة والأمن السياسي والجمارك المتهمين بممارسة التعذيب بالقيادة العامة للجيش والقوات المسلحة «على الرغم من إنهم يتبعون إدارياً لوزارة الداخلية وليس للقيادة العامة للجيش والقوات المسلحة».

تسريح تعسفي

أصدر الديكتاتور حافظ الأسد النظام الأساسي للعاملين في الدولة الصادر برقم ١ بتاريخ ١٩٨٥/١/٢ وتنص المادة ١٣٨ منه على ما يلي:

١٣٨ / ١- يجوز، بمرسوم، صرفُ العامل من الخدمة دون ذكر الأسباب التي دعت لهذا الصرف، وتصفى حقوق العامل المصروف من الخدمة وفقا للقوانين النافذة.

١٣٨ / ٢: إن مراسيم الصرف من الخدمة وفقاً لأحكام هذه المادة غير قابلة لأي طريق من طرق المراجعة أو الطعن أمام أية جهة أو مرجع وترد الدعاوى التي تقام ضد هذا النوع من المراسيم أيا كان سببها.

١٣٨ / ٣: لا يسمح باستخدام العامل المصروف من الخدمة بموجب

هذه المادة وذلك مهما كانت صفة هذا الاستخدام إلا بقرار من رئيس مجلس الوزراء يجيز ذلك.

«ملاحظة: يمكنني القول، من دون أن أشعر بأي ندم، بأن قوانين دول العالم التي شُرِّعَتْ عبر العصور لا يُعقل أن تكون احتوت على مادة تتضمن كل هذا الإجرام»!

النظام العام

حينما دخل الضباطُ، وصفُّ الضباط، والجنودُ، وعناصرُ الأمن الموالون للجنرال حافظ الأسد إلى دمشق «بالأخص دمشق» وحلب وبقية المدن السورية الكبرى، بدءاً من خريف ١٩٧٠، شرعوا يستأجرون بيوتاً، يسكنونها حينما يكونون في وقت المبيت.. أو تسكن فيها عائلاتهم..

وعلى الفور.. طُويت من القانون المدني السوري المادةُ التي تسمح للمالك بـ «تخمين» البيت المُسْتَأجَر، ورفع مبلغ الإيجار مرة كل سنتين..

وعلى الرغم من موجات التضخم النقدي الكبرى التي جعلت ثمن البيت الذي كان في حدود مليون ليرة يصل إلى عشرات الملايين من الليرات السورية، بقيت أجرة البيت في حدود مئتي ليرة، أو ثلاثمئة ليرة، أو خمسمئة ليرة في أحسن الأحوال..

وقد فعل هؤلاء «العسكرُ» في البيوت التي استأجروها الأفاعيل، فكان الواحد منهم، إذا انتهت مدة خدمته، يؤجر البيت لأخيه، أو ابن عمه، أو ابن ضيعته، دون الرجوع إلى المالك المؤجر..

والمحاكم المختصة بالنزاعات الإيجارية أخذت حسبها الله وتعالى، ونعمَ الوكيل، وصارت ترضى بهذا الظلم الذي يقع على المالك، وتنظر إليه على أنه «مشيئة» خارجة عن إرادة الحق والقانون والبشر.. وصاروا

يجيبون من يسألهم في هذا الموضوع قائلين:

- لقد أصبح هذا جزءاً من النظام العام!

«تخيلوا: النظام العام في سورية الحبيبة يقوم على الاغتصاب والسلبطة»!

إمعاناً في الاغتصاب

معلومٌ، أيضاً، أن بعض الضباط، إذا وجدوا منزلاً مغلقاً، لا يعرضُه مالكُه للإيجار، كانوا يكسرون القفل، ويحتلون المنزل، فإذا راجعهم المالك بشأنه كانوا يُشبعونه لكزاً، وضرباً، و«تبكيساً»، وسباباً على محارمه، ويطلبون منه أن يُراجع مكتب البريد، في كل رأس شهر، لاستلام الأجرة.. «التي يحدد الضابط المستأجِر مبلغها بحسب ما يملي عليه وجدانُه»!

فخر

النتيجة المنطقية التي وصلنا إليها، في ظل هذه القوانين، أن المواطن الذي يعيش في أية دولة محترمة في العالم، يحق له أن يفخر بأنه يحترم القانون.. بينما يفخر المواطن السوري بأنه «لا» يحترم القانون!!!!!!!!..

***

الفصل الخامس- توزيع الأدوار

بين باسل وبشار

كان الجنرال حافظ الأسد قد خطط لأن يُسَلِّم «عهدة» أرواح السوريين، وأبنائهم، وأموالهم، ومستقبلهم، لابنه الأكبر باسل.. وبدأ يُعِدُّه، فعلياً، لهذه المهمة، فسلمه بعض الملفات السياسية والأمنية المهمة..

وباسل، بدوره، بدأ بترتيب «عصابته الخاصة» التي ستساعده على كم أفواه البلد..

وكان قد رتب «اللوك» الخاص به، بأن أطلق لحيته السوداء، وشرع يضع على عينيه نظارتين شمسيتين..

أفراد شلته ومرافقوه وشبيحتُه شرعوا يطلقون لحاهم، ويضعون النظارات الشمسية مستخدمين «اللوك» نفسه.

ولكن باسل مات. واضطر الجنرال إلى الإسراع بتأهيل شخصية بشار لتسليمه «العهدة»..

وبما أن أبرز ملمح في «اللوك» الخاص ببشار هو رقبته الطويلة، فقد علق أحد السوريين الأذكياء على الموضوع بقوله:

- على زمان باسل كان المرافقون يطيلون لحاهم.. الآن يجدر بمرافقي بشار أن يطيلوا رقابهم!

تعريف الشهيد

معلوم أن باسل الأسد قد مات بحادث سير، في مطار دمشق الدولي، حينما كان يسوق سيارته بسرعة ٢٨٠ كيلومتر في الساعة..

المنافقون، في كل المحافظات، أطلقوا عليه لقب «الشهيد».. وأزالوا، بكل وقاحة، أسماء بعض الشهداء الحقيقيين من واجهات بعض المدارس والمنشآت الحكومية، ووضعوا مكانها اسم «الشهيد باسل حافظ الأسد»..

حتى إن أحد المسؤولين في محافظة إدلب قد أقدم، بكل خسة، ونذالة، و«وسخنة»، على إزالة اسم «الخنساء» عن أقدم صالة ثقافية في المدينة، ووضع مكانها اسم باسل الأسد!

أحد السوريين طُلب منه تعريف «الشهيد» فقال:

«الشهيد إنسان فاسق، يقود سيارته داخل مطار دمشق الدولي، وهو ثمل، بسرعة ٢٨٠ كيلومتر في الساعة، فتصطدم سيارتُه بالرصيف، فيموت، أو، بالأصح، يستشهد»..

صورة المعلم

يعتقد محسوبُكم، مؤلف هذا الكتاب، أن سوريا هي الدولة الوحيدة في العالم التي تسمح لبعض أبنائها بلصق صور رئيس الجمهورية على الزجاج الخلفي للسيارات الخاصة والعامة..

في البداية كانوا يعلقون صورة حافظ الأسد وحده، ثم تطور الأمر فأصبحوا يعلقون صورته وصور أبنائه الثلاثة باسل وبشار وماهر..

وحينما آل الأمر إلى الوريث بشار الأسد أصبحوا يعلقون صورته وصورة أخيه ماهر وهما يضعان على أعينهما النظارات الشمسية، وينظران على

نحو جانبي.. مما يوحي بالغموض والقسوة والأهمية.. ويكتبون تحتها عبارة: هكذا تنظر الأسود!

ملاحظة: كان الرواد الأوائل لهذا التصرف يستغلون لصق «صور المعلم» على السيارات من أجل أن يتمكنوا من مخالفة القانون، والاستخفاف بالنظام، والقيام بعمليات تهريب وسمسرة و«تشبيح» دون أن يجرؤ أحد من رجال الأمن، أو شرطة السير، أو الضابطة الجمركية على اعتراض طريقهم.. ولكن حينما أصبح لاصقو الصور أكثر من الهم على القلب ما عاد أحد يخافهم، لأن الأصل في المسألة الريادة والندرة.. والذين استمروا بلصق الصور أصبح لهم هدف وحيد، هو ألا يشك أحد من رجال الأمن بأنهم- لا سمح الله- «معارضون» لنظام الممانعة الأسدي!

الآية معكوسة

امَّحَتْ ظاهرةُ لصق صور بشار وأسرته من تلقاء نفسها بعد اشتداد عود الثورة.. وأصبح الشبيحةُ يسيرون بسياراتهم، من دون صور، ومن دون توضيح للكيفية التي تستخدمها الأسودُ في النظر.. لئلا يشك أحدٌ من الثوار بأنهم- لا سمح الله- «مؤيدون» للنظام الأسدي!

جاسوس

ضمن هذا السياق رويت نكتة عن ضابط أمن سوري ذهب إلى إسرائيل، بجواز سفر مزور، ومعه مهمة استطلاع وتجسس على العدو الإسرائيلي، وخلال يومين فقط استطاع الموساد الإسرائيلي إلقاء القبض عليه، بتهمة الجاسوسية.

سأل سائل: كيف وقع في أيديهم؟.. وبهذه السرعة؟

فأجاب مجاوب: الضابط المذكور فعل كل ما من شأنه إيهام الإسرائيليين بأنه يهودي ومنتم إلى الحركة الصهيونية.. وإمعاناً منه في إثبات حسن النية اشترى سيارة خاصة، ولصق على زجاجها الخلفي صورة «بنيامين نتنياهو مع أخويه».. وكتب تحتها: هكذا ينظر النواتهة!

الشروع

بتاريخ ٢٢ كانون الثاني يناير ٢٠١٢ أعلنت الجامعة العربية مبادرتها المتضمنة تنحي بشار الأسد ونقل السلطة إلى نائبه السيد فاروق الشرع، الذي، بدوره، يقود فترة انتقالية.. وذلك على غرار الحل اليمني.

السوريون الأذكياء، سرعان ما حصلوا على صور فاروق الشرع، وألصقوها على زجاج السيارات من الخلف وكتبوا تحتها: هكذا تنظر الشروع!

وأما الموقع الإلكتروني»الثورة الصينية ضد جنتاو» فقد طالب فاروق الشرع بتزويد الشعب السوري بصورة والده.. حتى إذا ما ثاروا عليه في المستقبل يهتفون له: يلعن روحك يا فلان.. على غرار هتافهم «يلعن روحك يا حافظ»!

الإرث

في أواخر تموز «يوليو» وبداية آب «أغسطس» ٢٠١٢.. دخل نظام بشار الأسد في مرحلة جديدة من مراحل حربه ضد الشعب السوري، وهي «مرحلة التدمير الشامل لسوريا»، وقد أطلق عليها أحد المحللين اسم «مرحلة ما قبل الكيماوي»..

أحد السوريين لم يستطع التآلف مع هذا الوضع المريع، فكان ما ينفكُّ يسأل، والدهشة تستولي عليه:

- معقول؟ أهو معقول هذا الذي يقوم به بشار وأخوه؟.. إنهما يخربان البلاد.

ذات مرة، رد عليه أحدهم قائلاً:

- لو أن أبي، رحمة الله عليه، أورثني مزرعة، وفيها فيلا فخمة، وبضع سيارات، ومجموعة من الخدم والعمال، وبعض النساء الجميلات، لكنتُ نصبتُ رشاشاً على السطح، وأطلقتُ النار على كل من تسول له نفسه أن يعتدي على ميراثه.. ولعلمك.. إن حافظ الأسد قد أورث ولديه دولة كاملة، بثروتها، وشعبها.. أفلا يدافعان عن إرث «محروق النَفَس، المنفوخ» الذي خلفهما؟!

(بالطبع فإن هذا المنطق أعوج)!

بين بشار وماهر

بعد مضي حوالي أربعة أشهر على بدء الانتفاضة السورية، شعر بعض المتشددين في النظام العائلي الديكتاتوري أن «إنتاجية» بشار الأسد في القمع لم تكن على ما يرام، فحتى ذلك التاريخ لم يتجاوز عدد الشهداء ١٥٠٠ شهيد، والمفقودين ٣٠٠٠، والمعتقلين لم يبلغوا رقم «٢٠٠٠٠» إلا بشق النفس، والتعذيب في المعتقلات لم يودِ سوى بحياة مئة شاب.. ولذلك ارتأوا أن شقيق بشار، العميد ماهر الأسد، أكثر صلاحية منه لهذه العملية، باعتباره أشد إجراماً وحقداً على الشعب السوري، فرفعوا شعاراً كُتب في أماكن متفرقة من البلاد هذا نصه: بشار إلى العيادة.. وماهر إلى القيادة!

«ملاحظة: لا شك في أن هؤلاء القوم قد صَدَّقوا الرواية القائلة بأن بشار الأسد طبيب مختص بالعيون، ويجيد عملية التطبيب، فيما لو فتح عيادة»!

النظام الديكتاتوري والإجراءات السحرية

وعلى ما يبدو.. فقد أدرك الحكماء في «العائلة الحاكمة» خطورة الشعار الذي رفعه المتشددون منهم، فبشار الأسد نفسه لا يتمتع سوى بشرعية شكلانية، جاءت من خلال تزوير إحدى مواد الدستور السوري، «المُفَصَّل، أساساً، على مقاس الجنرال حافظ الأسد».. في حزيران «يونيه» ٢٠٠٠، وجعل سن رئيس الجمهورية أربعاً وثلاثين سنة بدلاً من أربعين سنة، ثم رشحوه للرئاسة دون منافس، عن طريق القيادة القطرية لحزب البعث، وأنجحوه رغماً عن أنف الذي يريد والذي لا يريد، بنسبة تجاوزت ٩٧ بالمئة، وأعطوه، خلال خمس دقائق، ترفيعات في رتبه العسكرية يحتاج الضابط المجتهد إلى أكثر من خمس وعشرين سنة حتى يدركها، إذا أدركها، وجعلوه برتبة فريق، وعينوه أميناً عاماً لحزب البعث العربي الاشتراكي، خلال أربع ثوانٍ، وقائداً عاماً للجيش والقوات المسلحة خلال ثانية ونصف الثانية.... فإذا أخذنا كل هذه المهازل بعين الاعتبار، كيف سيرضى الشعب السوري، والعالم الخارجي، بماهر الأسد «الذي لا يعرف عنه الشعب شيئاً غير أنه مجرم» رئيساً للبلاد؟

وكان هذا الرأي مُقنعاً، وسرعان ما طُمست عبارة «بشار إلى العيادة.. وماهر إلى القيادة» المكتوبة على بعض الجدران.. وكتبت مكانها عبارة أكثر غرابة ومدعاة للدهشة هي: الأسد.. أو لا أحد. «وتعني أن عائلة الأسد ستبقى حاكمة لسورية حتى ولو أبيد الشعب السوري بالكامل»!

وفي وقت لاحق رفعوا شعاراً أكثر وضوحاً، ووقاحة، وحقارة هو: الأسد أو نحرق البلد!!..

ولأن الشعب السوري أصر على التحرر.. فقد أحرقوا البلد بالفعل.

بين بشار والرب الكريم

لم يستطع المتشددون في النظام الديكتاتوري العائلي أن يقعدوا مكتوفي الأيدي تجاه الصرخات التي ما انفك الشارع السوري يطلقها ليلاً ونهاراً «إرحل إرحل يا بشار».. فسارعوا إلى توزيع الأدوار بين الله تعالى وبشار الأسد، فشرعوا يكتبون على الجدران:

الله للعبادة والأسد للقيادة!

***

الفصل السادس- طرائف ثورية

الجيش العظيم الباسل

علق أحد السوريين الخبثاء على إنجازات الجيش العربي السوري الباسل في المدن السورية، فقال:

- إذا كان جيشنا الوطني، العظيم، الباسل، قد استطاع، خلال سنتين ونصف السنة، أن يقتل مئة وثلاثين ألف مواطن سوري، ويخلف مئات الألوف من الجرحى، وتمكن من هدم عدد كبير من البنايات، والمنازل الأفقية، والمآذن وحرق عدد كبير آخر منها.. وأجبر بضعة ملايين من الناس على الهرب خارج الحدود، فما بالكم بما يمكن أن يفعله بالكيان الصهيوني، الاستيطاني، الغاصب، الذي زرعته الإمبريالية على التراب الوطني لفلسطين الشقيقة.. لو واجهه؟!

الله أكبر!!

تكبير..

تكبير

اسْتُخْدِمَتْ كلمة «تكبير» خلال انتفاضة الشعب السوري العظيمة استخدامات جليلة.. فحينما كانت المظاهرات تلتحم، وتجتمع، وتحتدم، كان أحد الشبان الشجعان يصيح «تكبير».. فيرد عليه الألوف من المتظاهرين، بصوتٍ مدو: الله أكبر..

يحكى، على سبيل الدعابة اللطيفة، أن امرأة أرملة كانت تمتلك

سيارة، عَيَّنَت لها سائقاً يوصلها وأبناءها إلى حيث تشاء، ويؤمن للبيت حاجياته من السوق.. وكانت قد اتفقت معه أن تعطيه رنة على الموبايل «ميسكول» فيأتي إليها في العجل.

وكان ذلك السائق مولعاً بالمظاهرات.. وذات مرة، بينما هو في المظاهرة إذ تلقى «ميسكول»، فغادر من توه إلى بيتها، وقال لها: خير معلمتي؟

قالت: خذ هذه التنورة إلى الخياط.

قال: ماذا يلزم لها؟

قالت: تكبير..

فأخذه الحماس، ووجد نفسه يصيح بقوة: الله أكبر!

دكان الثورة

في الأشهر الأولى من الثورة، قبل أن أضطر أنا- محسوبكم- لأن أغادر مدينة إدلب «لأسباب أمنية»، كنا ننزل، في آخر الليل إلى الدكان المقابلة لمنزلي، حيث يجتمع عدد كبير من الشبان الذين بهم علاقة ما بالثورة، ونعرف أدق التفاصيل عما جرى في البلد يومياً.

وكانت زوجتي تسألني حينما أغادر البيت في منتصف الليل:

- لوين؟

فأقول لها: إلى «دكان الثورة»!

بيكآب الثورة

خلال انتفاضة الثامن عشر من آذار «مارس» السورية الكبرى ٢٠١١.. وبينما كانت قواتُ الفرقة العسكرية الرابعة التي يقودها السفاح ماهر الأسد تَدُكُّ البنايات الآهلة بالسكان في المدن الكبرى، كدرعا،

وحمص، وبانياس، وبعض المدن الصغيرة كتلكلخ والمعضمية وداريا، وتقتل سكانها «على أبي جَنَب.. أي: من دون تمييز»، وتحاصرُها، وتمنعُ إسعاف الجرحى من الثوار، وتَحُول دون وصول الإمدادات الغذائية والطبية وحليب الأطفال إلى تلك المدن.. كان أهالي قرية «ح»، في أقصى الشمال السوري، يقومون بثورتهم السلمية على هواهم.. ومن دون أن يُعَكِّرَ صَفْوَهم شيءٌ تقريباً..

ومعلومٌ أن الثورة بدأت في درعا وانتقلت إلى بقية المدن، بشعارات بدأت في البداية خجولة وخائفة، من قبيل «سلمية سلمية»،.. «حرية حرية»،.. «الله سورية حرية وبس».. «الشعب السوري ما بينذل».. ثم، وبعد حين من الزمن، وبعد البطش المخيف الذي تعرض له الشعب، تجرأ المتظاهرون السلميون ورفعوا شعار «الشعب يريد إسقاط النظام»، وأما ثوار قرية «ح» فبدؤوا، رأساً، بشعار إسقاط النظام!!!

وكان أحد أبناء تلك القرية، ويدعى «أبو حسين»، قد اشترى، قبل سنتين، بيكاباً زراعياً روسياً مستعملاً، من ماركة «إييج»..

في أواسط التسعينيات من القرن العشرين بدأت الحكومة السورية تستورد بيكآبات زراعية من فرنسا وإيطاليا وتشيكيا واليابان والصين وكوريا وماليزيا وتركيا.. وبعد مدة قصيرة من الزمن، وبالتجربة العملية، اتضح للأهالي أن البيكابات الروسية هي من أردأ أنواع البيكآبات، فهي غليظة الشكل الخارجي، وضعيفة الجدوى الاقتصادية، فإذا كان البيكآب الياباني يصرف تنكة «أي: عشرين ليتراً» من البنزين إذا قطع مسافة قدرها ٣٢٠ كيلومتراً، فإن البيكآب الروسي يستهلك الكمية ذاتها من البنزين إذا قطع ١٢٠ كيلومتراً فقط..

ولأن البيكآب الروسي رخيص الثمن «بسبب رداءته»، فقد كان الفقراء يشترونه، ويبدلون بمجموعة الإقلاع الميكانيكية الخاصة به مجموعةَ

إقلاع يابانية، لتصبح جدواه الاقتصادية معقولة، وبعضهم، كأخينا أبي حسين من قرية «ح» الشمالية، أجرى عليه بعض التعديلات، فأصبح يشتغل بالغاز بدل البنزين.. والغاز في سورية أرخص من البنزين بكثير.

«ملاحظة: إن السعر الوسطي لأي بيكآب من الأنواع الأخرى هو ثلاثمئة ألف ليرة، بينما اشترى أبو حسين بيكآبه المستعمل المعدل بستين ألف ليرة سورية فقط»!

وبمجرد ما قامت الثورة في قرية «ح» ذهب أبو حسين ببيكآبه إلى الخطاط في مدينة معرتمصرين، وطلب منه أن يكتب على الواجهتين الأمامية والخلفية للبيكآب عبارة «بيكآب الثورة»، واشترى ميكروفوناً يعمل على البطارية، ووضعه في كبين البيكآب، وأصبح يستخدمه في الهتاف والتكبير والتعييش والتسقيط.

وفي يوم من الأيام.. خطر لأهالي قرية «ح»، أن يحرضوا أهالي قرية «ك» على المشاركة في الثورة ضد النظام الأسدي، أسوة بكافة أنحاء البلاد السورية.. وعلى الفور، تبرع أبو حسين بأن يأخذ معه ثلاثة أشخاص من القرية، في بيكآب الثورة، ويذهبوا إلى أهل قرية «ك» لإقناعهم، زاعماً أنه على صلة وثيقة بوجوه بارزة في «ك»، وأنه يستطيع إدخال فكرة الثورة في وجدانهم.

وهذا ما كان. ذهب أبو حسين ورفاقُه الثلاثة إلى قرية «ك»، وطلبوا من أحد الوجهاء أن يجمعهم بالأهالي.. فحصل ذلك.. وبمجرد ما وقف أبو حسين، وفتح موضوع المشاركة في الثورة.. هب إليه بعض الرفاق من «الشبيحة»، وأشبعوه ورفاقَهُ تبكيساً وتعجيقاً.. وسارع بعضهم الآخر إلى «بيكآب الثورة» فأحرقوه.

(تذييل أول: يا تُرى.. هل توجد علاقةٌ ما.. بين رداءة الصناعة الروسية.. ورداءة الموقف الرسمي الروسي من الشعب السوري وثورته؟!).

(تذييل ثان: ترك أبو حسين بيكآب الثورة المحترق في قرية «ك»، وبعد أيام أرسل خبيراً ميكانيكياً لمعاينة جثة البيكآب المحترقة، وحينما عاد الخبير وأخبره أن عملية إصلاحه تكلف مئة ألف ليرة سورية قرر تركه في مكانه لأن قيمته المادية أقل من تكاليف إصلاحه.. رغم قيمته المعنوية!).

(تذييل ثالث: اشترى أبو حسين، على الفور، موتوسيكلاً عتيقاً، من موديل «ياماها»، وأخذه إلى الخطاط في معرتمصرين، وكتب عليه: موتوسيكل الثورة!).

دار الثورة وسيارة الثورة

وحينما نزحتُ إلى تركيا، مدينة «الريحانية» نزلتُ، على نحو مؤقت، عند صديقي «صاد شين»..

وكنت أظن أنني سأكون ضيفاً ثقيلاً على صاد.. ولكنني فوجئت بأن معظم الثوار القادمين من محافظة إدلب لا بد أن يقيموا في بيته، يومين أو ثلاثة أو أكثر قبل أن يتابعوا طريقهم إلى حيث هم ذاهبون.

أطلقنا على دار صاد: «دار الثورة»..

وكنت أنا الوحيد بين المجموعة الذي يمتلك سيارة خاصة، وكنت أعطي مفاتيحها لكل من يطلبها مني.. لذلك أطلق عليها الشباب: سيارة الثورة..

مهربو المازوت.. والحرية

مع بداية الثورة شرع لفيفٌ من المهربين الصغار يأتون من إحدى البلدات القريبة من الحدود السورية التركية، ويهرِّبون المازوت بعبوات من فئة «٥٠ ليتر»، ويحققون، بذلك، أرباحاً لا يمكن مقارنتها مع أرباح

التجار الكبار ورؤساء الأفرع الأمنية، ولكنها أرباح جيدة، لأن ثمن ليتر المازوت في تركيا يعادل ثلاثة أضعاف ثمنه في سوريا..

الضابطة الجمركية، بالتعاون مع السلطات المحلية، واللجنة الأمنية في محافظة إدلب، جمعوا هؤلاء المهربين الصغار، واشترطوا عليهم، إذا أرادوا تهريب المازوت بأمان، أن يقفوا بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع، ويضربوا كل من يهتف لـ «الحرية»، ضرباً مبرحاً، وإذا أمكن القبض عليه وتسليمه لأقرب مفرزة أمنية.

تم الاتفاق بين الطرفين على هذه الشروط.. وبالفعل استطاع المهربون منع أية مظاهرة تهتف لـ «الحرية» تخرج من مسجد البلدة الكبير حيث تقام صلاة الجمعة..

وفي ذات يوم حصل التباس غريب.. فقد خرجت من «المسجد الكبير» مظاهرة كبيرة، ولم يعترض المهربون طريقَها.. وحينما عاتبهم المسؤول الأمني في البلدة على تقاعسهم عن تنفيذ الاتفاق.. قالوا له:

- أنتم طلبتم منا منع أي مظاهرة تطالب بـ «الحرية»، وقد فعلنا ذلك طيلة الأسابيع الماضية، وأما اليوم، فالمتظاهرون لم يذكروا كلمة «الحرية» بتاتاً.. ألم تسمعهم وهم يهتفون «الشعب يريد إعدام الرئيس؟»!

شيء مُخجل حقاً

بطل هذه الطرفة صديقي الذي نال شرف الشهادة «فيما بعد» احمد مشقع «أبو يحيى»

كان قد دب خلافٌ في الرأي بين أعضاء تنسيقيات الثورة في مدينة إدلب حول الشوارع والطرقات التي ينبغي على المظاهرات أن تمرّ، أو لا تمرّ، فيها. وكاد الأمر أن يتطور إلى مشاحنة، وشق في الصفوف.

ذهبنا، المهندس «ع. غ» والكاتب المرحوم تاج الدين الموسى وأنا،

باعتبارنا من عقلاء الثورة، إلى حيث يجتمع الشباب في أحد بيوت الحارة الشمالية، بقصد حل الخلاف.

ملخص الخلاف هو التالي:

ثمة شوارع ينطوي المرورُ فيها، برأي بعضهم، على مغامرة هوجاء، بسبب الحراسة الأمنية المشددة، منها الشارع الذي يوجد فيه مقر الأمن السياسي، والشارع الذي يمر بجوار مقر الأمن العسكري والشرطة العسكرية وفرع الحزب، والشارع القريب من مبنى فرع أمن الدولة، والشارع الذي يقع فيه القصر العدلي ويؤدي، عند إشارة المرور، إلى بداية شارع القصور، وفيه إلى اليسار مبنى مجلس مدينة إدلب، وإلى اليمين مبنى المحافظة، وبين المبنيين المذكورين يوجد تمثال حجري لحافظ الأسد «هُبَل» تخشى الإدارة الأمنية في المدينة أن يصل إليه المتظاهرون، ويحطموه مثلما فعلوا بالتمثال الحجري الذي يقع في آخر الشارع نفسه من الجهة الجنوبية الذي حطمه المتظاهرون أنفسهم إبان تشييع الشهيد محمد خير الدين سيد عيسى.. ولذلك يحرسونه على نحو مكثف.

وضرب أصحابُ الرأي المعتدل للمتشددين مثلاً بما حصل ظهر يوم الإثنين السابع من آب «أغسطس»، أثناء تشييع الشهيدين علاء مشلح وابراهيم شحود، اللذين قتلا برصاص الأمن الجوي ليلة الأحد السادس من آب «أغسطس»، فقد تقصد المتشددون تسيير المظاهرة عبر شارع القصر العدلي، مضمرين الوصول إلى تمثال«هُبَل»، وتحطيمه، ولكن عناصر الأمن العسكري تصدوا لهم، وفتحوا النار على المشيعين، عشوائياً، وقتلوا الشابين محمد غريب وحسان سليمان عوض، وجرحوا العشرات، وأجبروا المتظاهرين على العودة من حيث أتوا، مذعورين.

طوال هذه الجلسة، بقي صديقي أبو يحيى «وهو من أكثر الحاضرين

تشدداً وحماساً» صامتاً، يستمع إلى الآراء، ويهز رأسه، دون أن يتدخل. فلما ساد شيء من الصمت قال، موجهاً خطابه لنا نحن العقلاء:

- صار بإمكاني أن أحكي كلمتين يا أساتذة؟

قلنا له: تفضل.

قال: أقسم بالله العظيم هذا الحكي يجعل جبين الإنسان يحمرُّ خجلاً. أريد أن أسألكم، إذا أنا التقيت بإنسان حموي، وسألني كم شهيداً سقط عندكم؟ كيف سيكون منظري وأنا أقول له عندنا في إدلب ستة شهداء وفي رصيد مدينة حماة سبعمئة شهيد؟! أليس من الواجب علي أن أخفض رأسي- خجلاً- أمام أي أخ درعاوي في جعبته أكثر من أكثر من ثمانمئة شهيد؟!

الفصل السابع- ثقافة اجتماعية جديدة

كفرنبل المحتلة

عملياً، بدأ التأريخ للثورة «أو، إذا شئت، الانتفاضة السورية» بيوم الثامن عشر من آذار «مارس» ٢٠١١..

بعد مرور عدة أشهر على بدء الثورة، كان الجيش السوري قد احتل مجمل المدن والبلدات السورية، ومنها بلدة «كفرنبل» الواقعة إلى الغرب من معرة النعمان.. ولكن أهالي كفرنبل استمروا يقومون بالمظاهرات السلمية المناهضة للنظام الاستبدادي الدموي.. وكلما اشتد القمع، زادت وتيرة التظاهر لديهم.. وقد لفت أنظارنا أن معظم اللافتات التي رُفعت في كفرنبل منذ ذلك التاريخ كانت تكتب في أسفلها عبارة «كفرنبل المحتلة»!

ملاحظة ١: الصحفي السوري المرموق صبحي حديدي كتب مقالة في القدس العربي تمحورت حول لافتات كفرنبل الذكية.

ملاحظة ٢: بعد مرور سنة.. غيروا اسمها فأصبحت «كفرنبل التحرير».

يسقط كل شيء

لا يعرفُ طعم الاحتلال غير الناس الذين احْتُلَّت بلادهم.. فمع أن معظم أهالي كفرنبل «إن لم أقل كلهم» معارضون.. فقد كتبوا، بعد عشرة أشهر من عمر الانتفاضة لافتة تنص على ما يلي:

يسقط النظام، والمعارضة.. تسقط الأمة العربية، والإسلامية.. تسقط هيئة التنسيق، يسقط المجلس الوطني، تسقط الجامعة العربية، والأمم المتحدة.. يسقط كل شيء..

«كفرنبل المحتلة».

تدخل أجنبي

حينما انقسمت المعارضة السورية حول التدخل الأجنبي في سورية، وشرع الكثيرون يتبرؤون من تهمة الدعوة إلى التدخل الأجنبي، رفع أهل كفرنبل المحتلة لافتة كتبوا عليها:

نريد تدخلاً أجنبياً عسكرياً سافراً!

الحدود

منذ أن وقعت حرب الخامس من حزيران «يونيه» ١٩٦٧، وحتى ساعة تحرير هذا الكتاب، ونحن نسمع في الأخبار، والندوات، والتحليلات السياسية، ونقرأ في الصحف، الورقية والإلكترونية، عن تمسك الدول العربية، وفي مقدمتها الحكومة السورية المُمانعة المناضلة، بمبدأ عدم التفاوض مع العدو الإسرائيلي، إلا إذا قَبِلَ العدو بسحب قواته إلى حدود الرابع من حزيران «يونيه» ١٩٦٧.

بعد احتلال الجيش السوري «العظيم» لمعظم المدن السورية، من أجل ترهيب الشعب السوري، وإعادته إلى «بيت الطاعة».. كُتِبَتْ العبارةُ التالية على أحد جدران كفرنبل المحتلة:

- نطالب العدو بالانسحاب إلى حدود السابع عشر من آذار «مارس» ٢٠١١!!!

عَجْر

«كلمة تُقال للفاكهة غير الناضجة»

تختلف عبارات التأنيب من مدينة إلى مدينة، ومن منطقة إلى منطقة، وتختلف، كذلك، بين الريف والمدينة،.. فالمعروف أن الريفي «ابن الضيعة» حاد الطباع- أو كما يقول صديقي الروائي الكفرنبلي عبد العزيز الموسى «عَجر»- لا يعتني كثيراً بانتقاء الألفاظ المهذبة، فإذا أخطأ أحد الأولاد في ريف إدلب، مثلاً، يقول له مَنْ هو أكبرُ منه سناً، أو أبوه، أو عمه، أو خاله، أو ابن حارته الأقوى منه: وضريب.. أو: فَشَكة في زلعومتك.. أو: قواص في أُذنك.. و: العمى ضربك.. و: ضربة تفشخ حنكك،.. وأما في المدن الكبرى، وفي مدينة دمشق على وجه التخصيص، فنجد العبارات أكثر تهذيباً وديبلوماسية.. فإذا بلغوا قمة الغضب من شخص ما يقولون له:

ضربة تخلع رقبتك.. أو: ضربة تمصع رقبتك..

وإذا كنتم تذكرون، فإن هذه العبارة كانت تقال لغوار الطوشة، ولياسين في مسلسل «صح النوم»..

مؤامرة

تعلمون أن النظام الديكتاتوري الأسدي قائم برمته على الفساد، وأن أي إصلاح حقيقي يؤدي، بالضرورة، إلى سقوطه.. لذلك، وبمجرد ما قام الشعب السوري مطالباً بحريته وكرامته وثروته المنهوبة، هب الإعلام السوري إلى تعويم كذبته الأزلية، أعني كذبة المؤامرة، على السطح، وهي، هذه المرة، مؤامرة أمريكية- إسرائيلية- أوربية- سعودية- تركية- قطرية- بحرينية- بالاشتراك مع عملاء الداخل.

رئيس الجمهورية الأسدية الثاني، المدعو بشار الأسد، وقف، في أواخر آذار ٢٠١١، يخطب في مجلس الشعب- الذي أطلقنا عليه اصطلاحاً اسم «مجلس التصفيق والدبكة والزجل»- متحدثاً عن المؤامرة، وأثناء استقباله وفود المحافظات كان يحدثهم عن المؤامرة، ثم بدأ يرسل جيشنا العقائدي ليقتحم المدن والقرى، برفقة المخابرات، لينكلوا بأهلها، باعتبارهم «متآمرين»..

وفي اليوم الأول من آب «أغسطس» ٢٠١١، المصادف لعيد الجيش، أرسل كلمة «توجيهية» إلى القوات المسلحة، قائلاً لهم فيها: لقد استطعتم، بعزيمتكم الصلبة، أن تقضوا على المؤامرة!!..

بعدها.. خرج أهل مدينة كفرنبل المحتلة في مظاهرة حاشدة، وهم يحملون لافتة كبيرة كتبوا عليها: «يا بشار الأسد.. مؤامرة تخلع رقبتك»!!!

الدم السوري

قناة «الوصال» التي تمتلكها المملكة العربية السعودية، دأبت، أثناء الثورة، على تثبيت الشعار التالي في الطرف اليساري الأعلى من الشاشة «الدم السني واحد»..

في أواخر شهر تموز يوليو ٢٠١٢ رفع أهل كفرنبل المحتلة لافتة كتبوا عليها:

قناة وصال «الدم السني واحد» لا تمثلني..

القول بأن «الدم السوري واحد» يمثلني.

عرب الـ ٤٨

بقينا، نحن مجموعة من المثقفين السوريين المعارضين، مقيمين داخل «سوريا المحتلة»، إما طوعاً أو كراهية، رغم أن النظام الفاشيستي

قد نجح في تهجير القسم الأكبر من أصدقائنا المثقفين خارج البلاد..

وحقيقة أننا عشنا، خلال هذه الفترة العصيبة، حياةً قاسية للغاية، إذ لم نكن نستطيع التنقل بين المدن السورية، بسبب الحواجز الأمنية، وخطورة السير على الطرقات، وزاد الطين على بعضنا بلة، حينما منعونا من السفر خارج البلاد، بموجب كتاب سري وُزع على الحدود البرية والبحرية والجوية من قبل إدارة المخابرات العامة..

ذات مرة.. كانت قناة «العربية» تُجري حواراً مع سيدة سورية مُعارضة تقيم خارج سوريا، وكانت تتحدث بصوت مرتفع.. فكتب صديقي الشاعر «ف م ف»- على الفيسبوك- يخاطبها قائلاً:

- إلى السيدة المعارضة فلانة، نحيطك علماً أننا نحن «سوريّي الداخل!» أعصابُنا تعبانة جداً.. ونرجوك أن تُخفضي صوتك أثناء المقابلات!

كتبتُ تعليقاً لفؤاد في أسفل المنشور: ذكرني مصطلح «سوريّو الداخل!»، بمصطلح «عرب الـ ٤٨»!

خفة دم عجيبة

دخلتُ، أنا محسوبكم، ضمن عملية مفاوضات بين النظام الديكتاتوري الفاشستي من جهة، وشعب معرتمصرين «مسقط رأسي» من جهة ثانية..

موضوع المفاوضات هو التالي: كان الجيش العربي السوري، العقائدي، الباسل، بعد نشوة النصر التي انتابته إثر انتصاره على أهالي مدينة إدلب العُزَّل، يعد العدة لاقتحام مدينة معرتمصرين والتنكيل بأهلها على غرار ما فعله بإدلب وتفتناز وسرمين وجرجناز وبنش وحزانو وكلي والغدفة وأريحا والمعرة وقرى منطقة المعرة وجسر الشغور وجبل

الزاوية.. إلخ.

وكان المحور الأساسي للمفاوضات، هو: إزالة السواتر الترابية من مداخل معرتمصرين مقابل إعفائها من الاجتياح الهمجي..

«ملاحظة: نجحنا في ذلك، والحمد لله، وأصبحت معرتمصرين، إثر ذلك، ملاذاً آمناً لكافة أبناء المنطقة الفارين من البطش، وتحولت إلى سوق تجاري نشيط يؤمن لأهالي المنطقة احتياجاتهم المختلفة، دون أن يؤثر ذلك سلبياً لا على الثورة السلمية، ولا على الثورة المسلحة».

النكتة أن الشخص المسؤول الذي كان متزعماً المفاوضات من جانب النظام قال لي، عبر الهاتف، بالحرف:

- نحن نعرف أنك مُعارض، ولكنك، برأينا، معارض شريف..

قلت له: ما دمتُ بنظركم شريفاً، لماذا منعتموني من السفر؟

ههنا أظهر «حضرتُه» الكثير من خفة الدم، وقال:

- منعناك من السفر لأنك شريف.. لا نريد أن نخسرك!

***

«توضيح: بقيت معرتمصرين تعيش بأمان حتى أواسط شهر آب أغسطس ٢٠١٢ حيث بدأت تتعرض لقصف عشوائي لئيم أدى إلى استشهاد نحو عشرين مواطناً من أهلها، وتخريب عدد كبير من منازلها، وبالتالي فقد هجرها حوالي تسعون بالمئة من أهلها»...

الفصل الثامن- إلغاء قانون الطوارىء

المادة ١٧

أراد نظام بشار الأسد أن يوحي للعالم، ولبعض مؤيديه في الداخل، بأنه نظام إصلاحي، وحريص على مصلحة الشعب السوري، فسارع بعد حوالي شهر من بدء الانتفاضة، وبالتحديد في ١٩ / ٤ / ٢٠١١، إلى إلغاء قانون الطوارىء الذي حُكمت بموجبه سورية ثماني وأربعين سنة، منذ بداية انقلاب الثامن من آذار سنة ١٩٦٣.. ثم انقلاب حافظ الأسد ١٦ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٩٧٠ الذي عُرف في الأدبيات الإعلامية السورية باسم: الحركة التصحيحية المجيدة!

والنظام السوري الذي ملأ المحطات التلفزيونية المحلية والعربية والعالمية ضجيجاً بأنه ألغى قانون الطوارىء ومحكمةَ أمن الدولة، لم يُعلن، ولا حتى ضمن مساحة إعلامية مهجورة، أنه عَدَّل المادة ١٧ من قانون الضابطة العدلية، فأصبح في مقدور الشرطة والأمن ممارسة التحقيق مع أي معتقل يشتبه بمخالفته للقانون، واحتجازه لمدة سبعة أيام، وتمديدها، من المحامي العام، لتبلغ الشهرين.. وأن القانون الذي يمنع محاكمة أي رجل أمن يُميت سورياً تحت التعذيب ما يزال ساري المفعول.

وفي كل الأحوال.. فإن النظام السوري لم يَعْتَدْ- خلال حكمه الاستبدادي الممتد منذ ٤١ عاماً- أن يسلك أي سلوك قانوني، بل إن ما عُرف عنه هو أنه يضع القوانين خصيصاً لكي يخالفها!! ويعمل بنقيض

مقتضياتها!!.. لذلك، وبعد أيام قليلة من إلغاء قانون الطوارىء، هبتْ قواتُ الأمن السوري، مدعومة بالجيش، وعناصر من المُرتَزِقة الذين عُرفوا في سورية باسم «الشبيحة»، إلى قتل كل مواطن سوري سولت له نفسُه الأمَّارَةُ بالسوء بأن يرفع صوته مطالباً بالحرية، أو بالكرامة، أو بالعدل، أو بتحسين الوضع المعيشي للشعب، فارتفعت وتيرةُ قتل الناس في الشوارع، والمقابر الجماعية ملأت الرحبَ- على حد تعبير أبي العلاء المعري- وأخذ عدد «المفقودين» الذين بلغوا عشرات الآلاف في الثمانينيات يزداد، واعتقال الناس الذي كان في السابق انتقائياً، ومدروساً، أصبح، الآن، عشوائياً، فوضوياً، لا ضابط له.. حتى إن رجال الأمن، في بعض المدن السورية، اتخذوا من الاعتقال مصدراً للرزق، فأثناء عمليات المداهمة الكبرى كانوا يختطفون كل شاب مار في الشارع بالمصادفة، وكل شاب يعثرون عليه في البيوت التي يداهمونها، ويملؤون بهم الشاحنات العسكرية، بعد أن يوثقوا أيديهم بكلبجات شديدة الإيلام، ويضعونها خلف ظهورهم، ثم «يسوقونهم» إلى المعتقلات وهي عبارة عن ملاعب رياضية ومدارس ومعسكرات طلائعية، ومعسكرات شبيبية.

وعلى الفور يبدأ السماسرة المعتمدون لدى ضباط الأمن بالتقرب من أهالي الشباب المعتقلين، وتذكيرهم بالوقائع التي يعرفها الجميع عن المعاملة الوحشية «مع الاعتذار الشديد للوحوش!» التي يتلقاها المعتقلون، وبالأخص في هذه الفترة، حيث «الحديدة حامية»، والشاطر، الآن، مَنْ يهبّ لإنقاذ ابنه من هذه «العَلْقَة»، بسرعة، ومهما كلفه الأمر من مال.. والمال، يا سيدي- وأنت سيد العارفين- هو وسخ الدنيا، ومهما خسرتَ منه لا يساوي تَعَرُّض ظفر واحد من أصابع ابن

«المحروس ابنكم».. لأي ضرب أو إهانة أو احتقار.

وتنتهي هذه المفاصلة، أو «المُبازرة» بأخذ مبلغ من المال، قيل إنه تراوح بين ٢٥ ألف وخمسين ألف ليرة سورية، من والد كل معتقل، وإيصال القسم الأكبر من هذه المبالغ للضباط، ونسبة قليلة يأخذها العناصر الصغار والسماسرة، ويُخلى سبيل بعض المعتقلين أبناء الرجال المقتدرين، وأما الفقير، فليذهب «إلى حيث ألقت رحلها أم قشعمِ».. الحق عليه، بالطبع، هو ليش فقير؟!

استرداد العافية

إن مبلغاً يتراوح بين خمسة وعشرين ألف ليرة سورية وخمسين ألف ليرة سورية، إنما هو، في المحصلة النهائية، مبلغٌ بسيط، لأن الشاب الذي يعتقل على خلفية التظاهرات السلمية، سيفرج عنه ضمن مدة أقصاها شهران، وبما أنه شاب «الله يخلّي الشباب!».. فبالتأكيد قادر على تحمل الضرب كيفما اتفق، والرفس على الخصيتين، والدوس على الرقبة، ودحش بوز الحذاء في الفم، والبصاق في الوجه، وقليل من الكهرباء في العضو التناسلي، والسباب على الأخت والأم والزوجة والبنت، ثم النوم في مكان أسوأ بكثير من الأماكن التي يُزْرَبُ فيها البقر، بالتناوب، «بسبب عدم اتساع المكان لنوم جميع المعتقلين، او جلوسهم، في آن واحد»، والجوع لمدة شهرين، باعتبار أن الوجبة الرئيسية هي رغيف بائت وحبة بطاطا مسلوقة، والجلوس قرب نافذة المرحاض، باعتبارها النافذة الوحيدة التي يدخل منها بعض الهواء البارد.. المهم أنه سيعود إلى أهله بعد شهرين وهو على قيد الحياة!!.. ثم، وخلال أسبوع أو عشرة أيام بالحد الأقصى، ومع بعض التنويع في الأكلات الشهية التي

تصنعها والدتُه الحنون، والنوم المريح، والابتعاد عن مشاهدة «الفضائية السورية» و«الإخبارية السورية» وقناة «سما» وقناة «الدنيا» وقناة نبيه بري اللبنانية «NBN»، يتعافى الفتى، و«يصحصح»، ويصبح قادراً- كما يقولون في الأمثال- على أن «يقلع توتة»!

قناة الدنيا

قناة «الدنيا» الفضائية التي يمتلكها عددٌ من «الهوامير» الاقتصادية التي أفرزها نظامُ الاستبداد.. اختصت بمواجهة أي صوت تحرري للشعب السوري، وقمعه بلا هوادة..

وخلال انتفاضة آذار «مارس» ٢٠١١ كانت قناة «الدنيا» تشتغل، بمعدل أربع وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة، في تأليف الأكاذيب والإشاعات التي لا شأن لها بالتصدي للأفكار التي يطرحها معارضو النظام وحسب، بل تتجاوز ذلك إلى الهجوم عليهم شخصياً، وتشويه سمعتهم، والعبث بتواريخهم.. وكانت تعمل على استضافة عتاة الموالين لنظام الاستبداد، المختصين بالردح، والمباطحة، ومقاطعة الخطباء المفوهين بالهتاف والتعييش والتسقيط..

ولعل أجمل ما روي من أحداث لها صلة بهذه المحطة، أن طبيباً من إحدى المحافظات السورية، اعتقلته قواتُ الأمن تعسفياً، بعد إلغاء حالة الطوارىء، بسبب اشتراكه في مظاهرة سلمية في مدينته، وحينما أوصله «الشباب» إلى الفرع، وسلموه «للمعلم» وعَرَفَ «المعلم» أنه طبيب، أراد أن يَظهر أمامه بمظهر حضاري، فأمرهم بأن يحتجزوه في غرفة التحقيق «فوق»، وبهذا يكون قد ميزه عن المتظاهرين الذين وصفهم العالم الجليل الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي بـ «الحثالة»، الذين اعتاد المعلم أن يأمر بإنزالهم لـ «تحت»، أي إلى قبو التعذيب..

لم يتعرض صاحبُنا الطبيب المعتقل لأي ضرب، أو سباب، أو إهانة، ولكن.. هل يعقل أن يَتْرُكَ هؤلاء القومُ «المعروفون بسلوكهم الإجرامي» معتقلاً سياسياً يُمضي مدة اعتقاله من دون منغصات؟ فمنذ الدقيقة الأولى لدخوله الغرفة شاهد جهاز تلفزيون موضوعاً في مكان مرتفع من الغرفة، وقد ثبت على محطة «الدنيا»، ولا يوجد جهاز روموت كونترول يمكنه من تغييرها، ولا يوجد زر، أو فيش يسمح له بإطفاء الجهاز بشكل نهائي، أو إخفاء الصوت على الأقل.

مضت الليلة الأولى على خير، وفي الصباح، دخل الحاجب، فاستوقفه الطبيب، وابتسم في وجهه، وقال له عبارات فيها الكثير من الإطراء من مثل: «باين عليك ابن حلال، و..».. إلخ.

قال الحاجب: قل لي من الآخر دكتور.. ماذا تريد؟

قال الطبيب: أريد أن أتخلص من التلفزيون.. أو على الأقل من هذه القناة.

قال الحاجب: صعب.

قال الطبيب: ألا توجد طريقة ما؟

قال الحاجب: الطريقة الوحيدة هي أن ترتكب خطأ يجعل «المعلم» ينزعج منك ويأمر بإنزالك لـ «تحت».. فهناك لا يوجد تلفزيون نهائياً.. ولكنني لا أنصحك بذلك.

قال الطبيب: ليش؟

قال الحاجب: لأنه في القبو «تحت» يوجد تعذيب.. وكهربا.. و..

تردد الطبيب قليلاً، ثم وقال: خلص خلص.. فهمت عليك. على كل حال.. أريد منك الآن أن تجيبني عن السؤال التالي: ما هي التصرفات التي إذا ارتكبتُها أنا ينزعج مني المعلم؟!

اعتراف

يعود تاريخ الطرفة التي سأرويها لحضراتكم الآن إلى الثمانينيات من القرن العشرين.. ومفادها أن الملعون رئيس فرع الأمن العسكري في إحدى المدن السورية كان على وشك مغادرة منزله في الصباح حينما اقتربت منه ابنتُه طالبة البكالوريا وطلبت منه أن يأتيها بمدرس للغة الإنكليزية لكي يعطيها دروساً خصوصية في البيت.. وأوضحت له أن الأستاذ «سين عين» هو أفضل أساتذة اللغة الإنكليزية الموجودين في المدينة حالياً.

ولأن ذاكرة الملعون ممتلئة على الآخر بالشغل الاستبدادي فقد سجل اسم المدرس على ورقة صغيرة، وحينما أصبح في المكتب أعطى الورقة لـ «جلوازه» الشخصي وقال له:

إئتني بهذا الأستاذ.

نسي الملعون، بسبب كثرة مشاغله، هذا الأمر يومين أو ثلاثة، مما اضطر ابنته أن تتصل به هاتفياً لتذكره، ووقتها نادى على جلوازه وقال له:

ألم أطلب منك أن تأتيني بالأستاذ سين عين؟

فرد عليه الجلواز بحماس: نعم سيدي نعم.. طلبت مني ذلك.. وأنا أتيت به، وسلمته للشباب.. واعترف!

***

الفصل التاسع- خاص بالجنرال

صبيحة اليوم العاشر من حزيران / يونيو ٢٠١٣، وبمناسبة ذكرى وفاة الجنرال حافظ الأسد.. كتب الأديب مروان علي على صفحته الفيسبوكية:

حين قالت زوجتي، وأنا أفتح باب بيتي الصغير في أمستردام: «مات حافظ الأسد».. بكيتُ.. من الفرح!!!.

كتبتُ في التعليق:

كثيرون في سوريا بكوا- صديقي مروان- لأن حافظ الأسد مات موتاً «طبيعياً»!!

تعليق الصديق الأول «علي. ق»:

لا زلت أذكر تلك اللحظة التي أعلن فيها عن وفاة حافظ الأسد مترافقة مع إعلان مجلس الشعب تعديل الدستور.. وقتها ضرب والدي على جبينه وقال .. راحت عشر سنوات أخرى.. لم نفرح بموته ولا ثانية!

تعليق آخر

كنا، بعد بضعة أيام من وفاته، في بيت أحد الأصدقاء. وكان ثمة فنان شاب يندب حظه ويقول: أول معرض لي، قبل ثماني سنوات، يوم الافتتاح، مات باسل الأسد، ثاني معرض، يوم الافتتاح، مات حافظ الأسد!! يومها قلتُ له: شد همتك، واعمل لنا شي عشرة معارض متتاليات...

ضحك جميع من كانوا معنا، عدا صديقنا الفنان، لأنه كان يخاف علي من الاعتقال فيما لو تسرب هذا الكلام خارج المكان!!

تعليق الصديق الثالث «مناف. أ»:

أذكر ذلك اليوم جيداً. بعد البيان الذي أذاعه مروان شيخو، بدقائق، وقفت على شرفة منزلنا، أنظر إلى المارة من تحته.. واضح من وجوههم أنهم لم يعرفوا بعد «بفطيس» القائد التاريخي، الذي أصبح من هذه اللحظة قائداً خالداً.

كان أحدُ اصدقائي واحداً من أولئك المارة، سألني عما أفعله على الشرفة في وقت يجب أن أدرس فيه بجد لامتحان الثانوية. أجبته: ألم تعلم بما حصل؟ مات حافظ الأسد.!!!!

أشار إلي بيده قاصداً: يخرب بيتك، جنيت؟ كيف تتكلم هكذا؟

وأهداني بعض الشتائم من العيار الثقيل، ثم ركض مبتعداً، خائفاً من جنوني المفاجىء.

تعليق من «أحمد ميم»

أزيدك نغماً خاصاً بصديقنا الطنبوري، عن آل الأسد الخالدين.. شقيقي الأصغر طبيب أسنان تخرج من جامعة «اللاذقية»، أكرر جامعة اللاذقية وليس «تشرين». استغرقت الدراسة معه ثلاث عشرة سنة, آخر ما كان يفكر فيه، همّه خلال هذه السنوات، هو طب الأسنان, فقد كان متفرغاً، بصراحة، لملاحقة بنات الجامعة.

بيت القصيد انه نجا أربع مرات من استنفاذ فرص الرسوب بمراسيم جمهورية، منح دورة تكميلية بمناسبة تجديد إحدى «البيعات» للأب القائد، والثانية رحيل الرائد الركن المظلي المهندس الفارس الذهبي الشهيد الركن باسل الأسد، ثالثها أحد أعياد التشارين، ورابعها، وأكثرها إيلاماً وفجيعة هو ذهاب الأب القائد الخالد إلى حيث رآه الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي في المنام.

على كل حال هذا الرجل خرب بيتنا. رحل وترك لنا ابنه الفلتة البطة الأهبل.

استاذة بالجامعة صديقة للسيدة الوالدة، قالت لها: يا «ام فلان» ابنك روّح نص بيت الاسد وما عاد يعرف يتخرج؟

ليتر عرق ريان

يوم وفاة حافظ الأسد، وبينما أنا ماشٍ في أحد الشوارع الفرعية في مدينة إدلب، إذا شاهدتُ رجلاً جالساً على حافة الرصيف، وقد وضع رأسه ضمن يديه الإثنتين في وضعية توحي بأنه متعب جداً..

لم أكن أعرف من هو.. اقتربتُ منه فكادت الدهشة تصرعني.. إنه صديقي العزيز «...».. سلمت عليك، فبدا لي أنه لم يسمعني.. مددتُ يدي ورفعت رأسه إلى الأعلى وقلت له:

ماذا حصل؟ لماذا أنت هنا؟

كانت رائحة العرق تفوح منه. قلت له: سكران؟

قال لي، بصعوبة: شربت ليتر عرق ريان كامل.. ومن ساعة وأنا قاعد هنا.. وهي لا تخرج، ولا تطل على البلكون.

قلت: من هي؟

قال: صديقتي.

قلت: ما هذا الكلام؟ أنت لك صديقة؟! هنا في إدلب؟! وتقعد عند بابها مثل البوهيميين؟ قم معي لأوصلك إلى البيت، بلا فضايح.

قال: إذا كنت تحبني اتركني.. والله، لو تحصل مئة فضيحة لن أتزحزح حتى أراها..

قلت: ممكن أعرف السبب؟

قال: أريد أن أزف لها البشرى.. مات حافظ الأسد!.. ولك يا خطيب.. إذا صديقتك ما شاركتك بفرحة مثل هذه.. من سيشاركك؟!

العبارات الثلاثة

بتاريخ الجمعة ٢٠١٢/١١/٢٣ رفع طفل من بلدة كفرتخاريم لافتة كتب عليها:

أشهر ثلاث عبارات في التاريخ هي:

Made In China

I love you

يلعن روحك يا حافظ!

حادثة واقعية

في إدلب، الثمانينيات، كان رئيس فرع الأمن العسكري شخص اسمه «العميد عبد الفتاح أبو سيف».. وهو رجل مخلص جداً لنظام حافظ الأسد، بدليل أنهم تركوه في هذا المنصب سنين طويلة.

ذات مرة، بمناسبة ما كان يعرف باسم «تجديد البيعة للقائد»، وقعت الحادثة التالية:

أمر «أبو سيف» رجاله بإحضار حَدَّاد لتثبيت صورة كبير للقائد حافظ الأسد في مكتبه. العناصر اتفقوا مع واحد اسمه «ق. ن»، فجاء في الوقت المتفق عليه.

الحداد «ق. ن» رجل صامت، يحب الشغل ولا يحب اللت والعجن والحكي، ولكن الأجير «س. ص» فتى أجدب.

قال الأجير «س.ص» لأبو سيف: سيدي، وضع الصورة هنا ما هو مناسب. لماذا لا تعلقها هناك؟.. يعني، ليس من الضروري أن تكون

في الوسط تماماً، أيش يمنع لو انحرفت قليلاً جهة اليمين؟

اعترض أبو سيف. قال: لا لا، هنا أحسن..

قال سين صاد: طيب، نجرب، إذا لم ترها منسابة نعيدها..

قال أبو سيف: لا لا، هنا..

دار جدال بين العميد أبو سيف الأجير.. وإذا بالحداد «ق. ن» ينزعج من أجيره ويصرخ به:

ولاك ابني، لأيش الأخذ والرد والحكي الفارغ؟ أنا ياما قلت لك: اربط الجحش مطرح ما يقول لك صاحبه!!

مواد مدعومة

كان الجنرال حافظ الأسد مولعاً برؤية الجماهير وهي تمشي في الشوارع، «مُكْرَهة.. لا بَطَلَةً»، آناءَ الليل وأطراف النهار.. فكان يوعز لمخابراته، أن توعزَ، بدورها، لفروع الحزب والمنظمات الشعبية المنتشرة في المحافظات السورية، بأن يُخْرِجوا الناس، بشيبهم، وشبابهم، رجالِهم، ونسائهم، وفتيانهم، وأطفالهم، إلى الشوارع، في «مُسَيَّرات عفوية- إجبارية» حاملين صورَه، وأعلامَ الجمهورية العربية السورية، وأعلامَ البعث، واللافتات القماشية التي تشيد بالقيادة التاريخية الحكيمة لهذا القائد، التاريخي، الفذ، المُلْهَم «أرجو التركيز على كلمة «مُلْهَم»».. وأن يهتفوا، ملء حناجرهم، بالانتصارات اليومية التي يحققها هذا القائد التاريخي، على الصعيد الخارجي، والعطاءات اليومية التي يقدمها لهم، سيادتُه، على الصعيد الداخلي.

من هذه العطاءات، على سبيل المثال لا الحصر: فتح المدارس!.. وشق الطرقات!.. وتأمين الغذاء للناس!!.. وإحداث الفنادق والمستشفيات!!.. وهكذا!

كانت المناسبات في سورية تقتصرُ على أشهر آذار ونيسان وأيار وتشرين الأول وتشرين الثاني «مارس وأبريل ومايو وسبتمبر ونوفمبر».. لأن فيها أعياد الانتصارات الوطنية والقومية التي حققتها الشخصيات التاريخية، البطلة، الفذة، المُلْهَمة، ولا سيما الشخصيات التي اغتصبت السلطة السورية بموجب انقلابات عسكرية، كانقلاب ٨ آذار مارس ١٩٦٣ ، وانقلاب ٢٣ شباط فبراير ١٩٦٣، وانقلاب ١٦ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٧٠.. ومناسبة شفاء الجنرال، ومناسبة مغادرة أخيه الجنرال رفعت البلاد إلى غير رجعة، ومناسبة «استشهاد» ولده باسل الذي «تعرض» لحادث سيارة على طريق المطار، حينما كان «يتصدى» لقيادة سيارته بسرعة ٢٨٠ كيلومتر في الساعة!

وحينما كان القائد المفدى حافظ الأسد لا يجدُ مناسبةً تصلحُ لإرغام الناس على الركض في الشوارع،.. كان يتلذذُ برؤية جموع الناس المحتشدين في طوابير، أمام أبواب الأفران، والمؤسسات الاستهلاكية، والجمعيات التعاونية، ومنافذ البيع في صالات شركة التجزئة، والمؤسسة الاجتماعية العسكرية. هذه الحشود، المتدافعة، المقتتلة، الصابرة، المستسلمة، لم تكن لتوجد أصلاً لولا السياسةُ الاقتصادية الحكيمة التي رسمها الفريقُ الاقتصادي الخاص بالجنرال حافظ الأسد، «وبتوجيه منه طبعاً»، وتعتمد على شد الأحزمة على البطون، والاكتفاء الذاتي الذي تجلى بمنع استيراد عدد كبير من السلع التي تلزم للمواطن في احتياجاته اليومية..

وبسبب سياسة الإفقار التي سادت في سورية على أيام الجنرال.. وأدت إلى تركز الثروة في يد قلة قليلة من القياديين الكبار في الدولة، وكبار ضباط الجيش والمخابرات، وكبار التجار «في دمشق وحلب

خصوصاً» الذين أعلنوا ولاءهم للجنرال إبان محنته التاريخية التي سببها له الإخوان المسلمون في الثمانينيات، وشريحة الطفيليين والانتهازيين والوصوليين المنتشرين في مختلف أنحاء البلاد، وتتألف من موظفين بيروقراطيين، وأناس عاطلين عن العمل احترفوا الاختلاس بوصفه مهنة للعيش الكريم.. فقد سقطت الطبقة الاجتماعية الوسطى، وتحول معظم أفرادها إلى أناس فقراء، «أنفار»، «أصفار» لا قيمة لهم، ولا كرامة، ولا هَمَّ لهم غير تأمين لقمة العيش لأبنائهم، هذه اللقمة التي لا يمكن تأمينها من دون الوقوف الذليل في الطوابير.

ولكي يُرغمَ الجنرال هؤلاء الناس على الامتنان له، والخروج في «مُسَيَّرات عفوية- إجبارية» للهتاف باسمه، والتسبيح بحمده، فقد أمر بأن تقوم خزينة الدولة بدعم المواد الاستهلاكية التي تلزم للمواطن على نحو أساسي، وهي «الخبز- السكر- الشاي- الأرز- والمازوت الخاص بالتدفئة».. وفي وقت لاحق، حينما احتاج «سيادتُه» إيرادات إضافية لسد عجز حصل في ميزانيته، أمر برفع سعر البنزين والمازوت، وسارع، لكي يبقى المواطن راضياً عنه، إلى صرف مبلغ هزيل من المال «بحدود ١٢ دولاراً» لكل موظف تحت مسمى «تعويض تدفئة وارتفاع أسعار»..

تهريب

إن إجراء دعم المواد الغذائية الأساسية «إضافة إلى المازوت» من قبل الدولة، بدا، في الظاهر، وكأنه اتُّخِذَ خصيصاً لحماية المواطن من عاديات الزمن.. وقد فرحنا، نحن المواطنين المُفْقَرين، لأول وهلة، به، وحينما أوعز القائد «الجنرال» إلى قيادات شعب المخابرات التي أوعزت، بدورها، إلى فروع الحزب لإخراجنا في مُسَيّرات تأييد للقائد التاريخي الفذ، المُلْهَم، خرجنا والغصة في حلوقنا أقل من السابق، إذ

وجدنا من واجبنا أن نشكر ذلك القائد الذي يستطيع تجويعنا كلية، ولكنه- مشكوراً- جَوَّعَنا على نحو جزئي!..

ولكننا اكتشفنا، بعد برهة تاريخية قصيرة، أن الهدف من هذا الإجراء، ليس حمايتنا، بل إيجاد فرص سرقة، ونهب، واختلاس لمجموعة لا يستهان بها من رؤساء الفروع الأمنية، وضباط الجمارك وبعض الانتهازيين من مديري المؤسسات والدوائر الحكومية، ومَنْ في حُكمهم، الذين يصلون الليل بالنهار في الدفاع عن هذا النظام، والتسبيح بحمده، وأصبح هؤلاء القوم يُهَرِّبون مازوتنا وشايَنا وسُكَّرَنا وطحينَنا إلى تركيا عبر مدخل «باب الهوى»، وإلى لبنان عبر عدة منافذ منها «العريضة» و«تلكلخ» و«القصير».. وقد ذُكِرَت لنا قرية اسمها «نيصاف» من أعمال ناحية «مصياف» بريف حماه، قيل إن فيها عدداً كبيراً من للضباط والتجار المختصين بتهريب المازوت..

أحد أبناء المنطقة أراد أن يلخص الفكرة فقال: إن قرية «نيصاف»- باختصار، مختصة بتهريب المازوت السوري إلى لبنان!

(بينما اختصت «سرمدا» بتهريبه إلى تركيا.)

حافظ الأسد

من يتأمل في طبيعة الثورة «أو الانتفاضة» السورية «٢٠١١» لا بد أن يلاحظ أمرين جوهريين، الأول أنها ثورة عفوية، شعبية، لم يكن للأحزاب والتنظيمات السياسية أية علاقة بها.. مع العلم بأن بعض الأحزاب والتنظيمات السياسية التي كانت موجودة على أرض الواقع سارعت إلى دعمها، وحاولت مجاراتها، والالتحام بها، وكذلك فعل المثقفون المستقلون الذين على شاكلة كاتب هذه السطور.. فالثورة شرف عظيم، وهنيئاً لمن يكسبه، ولو على نحو جزئي.

الأمر الثاني، أن الثورة أعلنت ضد نظام بشار الأسد، إلا أن معظم الثوار كانوا يصرون على أنها ثورة ضد حافظ الأسد الذي توفي في ١٠ / ٦ / ٢٠٠٠ وأورث الحكم والبلاد ورقاب الشعب السوري لابنيه بشار وماهر، وابن حميه محمد مخلوف وأولاده، وأبناء عائلة الشاليش.. وكثيرون في سورية، حتى الآن، يعتقدون أن حافظ الأسد يحكمنا من مكان تواجد في قبره!

ولذلك كان الهتاف القائل «يلعن روحك يا حافظ» من أكثر الهتافات رواجاً خلال المظاهرات السورية، وذات مرة سمعت بعض المتظاهرين يهتفون «يحرق روحك يا حافظ.. على هالخلفة المؤذية».. والأطرف من هذا كله أن بعض أهالي حمص وقفوا، في إحدى المظاهرات، على هيئة دائرة، كما يحصل في أعياد الميلاد المنزلية، وشرعوا يغنون «يلعن روحك يا حافظ» على لحن «happy birthday to you»!!!

رمز

نَسَجَت الثورةُ السورية، دون أن تدري، ودون أن تقصد طبعاً، بعض أهازيجها على منوال الأهازيج التي سادت في الأيام الكئيبة التي عاشها الشعب أثناء حكم الجنرال الأب.. فالأهزوجة الرئيسية التي كان الناس يُجْبَرُون على ترديدها خلال المُسَيَّرات العفوية الإجبارية هي «حافظ.. أسد.. رمز الثورة العربية».. والمتظاهرون الثائرون عليه، في معظم المدن السورية، راحوا يهتفون، مستخدمين الإيقاع الموسيقي نفسه: «حافظ.. أسد.. كلب الأمة العربية»..

هُبَل

إن الشعب السوري، ذا الطبيعة المُتَدَيِّنة «من دون تعصب»، يستخدمُ، في العادة، المصطلحَ الإسلامي في التعبير عن بعض

المفردات التي تمر به في حياته اليومية. فحينما أقيم في الطرف الغربي من حلب، قبل أكثر من أربعين سنة، تمثالٌ حجري يرمز للخصب، سرعان ما أطلق عليه أهالي حلب اسم «الصنم».. وأطلقوا على الدوار القريب منه اسم «دوار الصنم»، ومحطة البنزين القريبة منه «كازية الصنم»..

هذا في الأحوال العادية، وأما في أيام المعركة الطاحنة التي شنتها العصابة العائلية الحاكمة على الشعب السوري، لخنق صوته المطالب بالحرية والكرامة والإصلاح، فقد صَعَّدَ الشعبُ من لهجته العدائية تجاه حافظ الأسد، باعتباره المتسبب الرئيسي في كل هذه الأزمة، وكل هذه الويلات، وأصبحوا يطلقون على تماثيله المنتشرة في كافة أنحاء البلاد اسم «هُبَل».. نسبة إلى كبير أصنام قريش.

الجولان

ثمة رواية شفاهية يتداولها الشعب السوري منذ سنين طويلة، ملخصُها أن الجنرال حافظ الأسد، حينما كان وزيراً للدفاع سنة ١٩٦٧، أعطى أمراً للجيش السوري بالانسحاب الكيفي من مرتفعات الجولان، بقصد أن تحتلها إسرائيل، بناء على اتفاق «سري» بينه وبين المنظومة الإمبريالية العالمية «التي تقودها الولايات المتحدة الأميركية» ينص على أن يُعطى الأسد ضوءاً أخضر ليقوم بانقلاب عسكري، ويغتصب السلطة، ويحول سورية إلى جمهورية وراثية، مقابل تخليه عن المطالبة «الجدّية» بالجولان..

المتظاهرون، في مختلف أنحاء البلاد السورية، كانوا يهتفون:

ابن الحرام

باع الجولان

رقوه رقوه

المشهد الذي سأحدثكم عنه لم يُنقل إلي بطريقة «القيل» عن «قال»، وإنما رأيتُه رأيَ العين..

فبينما نحن نمشي في إحدى المظاهرات، إذ توقف الشبانُ الماشون في المقدمة، وتجمهروا، وأخرج أحدهم تمثالاً برونزياً للجنرال حافظ الأسد كان أحدُهم- على ما يبدو- قد أحضره من الدائرة الحكومية التي يعمل فيها، وشرعوا يلقونه على الأرض، ويركلونه بأقدامهم، ثم يرفعونه في الهواء ويبصقون عليه، ثم وحدوا حركاته في حركة واحدة، إذ خلعوا أحذيتهم وشرعوا يضربونه..

وكان ثمة متظاهر، شيخ كبير، في الثمانين من عمره، واقفاً بالقرب منا.. وهو غير قادر على اختراق الحشد الذي شكله الفتيانُ الأشداء.. وكان يرفع يديه إلى الأعلى ويهتف بحماس، وبفرح غامر:

- ولك أي.. رقوه رقوه.. كرمال الله رقوه!

«توضيح: حينما يُستخدم الحذاء العادي في الضرب، نقول: ضربوه بالأحذية.. وأما حينما تستخدم الشحاطات البلاستيكية فنقول: رَقُّوه بالشحاطات»..

استثناء

بطلُ هذه القصة هو المواطن «صاد صاد».. من إحدى البلدات السورية..

إنه رجل فقير، معدم، ولكنه مرحٌ، خفيفُ الظل، قادر على إضحاك الآخرين في أحلك الظروف، وأقساها.

في أوائل التسعينيات من القرن العشرين.. أُوْدِعَ «صاد صاد»، لمدة

خمس سنوات ونيف، في سجن تدمر ذي الصيت السيء، بتهمة «تحقير القائد المفدى، الرئيس المناضل، بطل الصمود والتصدي، حافظ الأسد»، بناءً على تقرير أمني أكبر من ملحفة اللحاف، كتبه مُخبر متطوع، ينص على أن «صاد صاد» كان جالساً مع رفاقه، رفاقِ السوء، وأمامهم كؤوس العرق، والمازَوَات، وفي نشوة السُّكْر، وذروة العربدة، روى لرفاقه نكتة ذكر فيها اسم حافظ الأسد هكذا، من دون ألقاب، «وكأنه ابن دورته في العسكرية!»، مفادها أن القائد المفدى يحب الحلويات، وهو، في الوقت ذاته، مصاب بالداء السكري الوبيل، وفي يوم من الأيام حضر طبيبُه الخاص إلى القصر، ورجاه أن يوقِّع له على «استثناء» باستيراد سيارة حديثة، بنمرة دبلوماسية، من دون رسوم جمركية.. فقال له القائد الملهم:

- أُعطيك «استثناء»، بسيارتين، إذا شئت، كل واحدة أفخم من أختها، على حساب القصر الجمهوري بالكامل، أي أنك لن تدفع من ثمنهما قرشاً واحداً، شريطة أن تعطيني أنت «استثناء» بتناول كيلوجرام واحد «فقط» من الحلويات يومياً!!

وجاء في التقرير أن هذه النكتة «الخبيثة» أحدثت بين السكرانين موجة كبيرة من الضحك على شخصية القائد العظيم بطل التشرينين، تشرين التصحيح وتشرين التحرير.. حتى إن أحد السكارى أغمي عليه من شدة الضحك، وشخ في سرواله، واضطروا لنقله إلى المشفى بحالة إسعاف!!

نزهة

خلال تلك السنوات العجاف التي أمضاها «صاد صاد» في المعتقل، كان يتعرض، يومياً، للضرب، والتعذيب، والإهانات،.. وكثيراً

ما كان يتمنى الموت، ولكن الموت يبتعد عنه، وكان، حينما يرجع إلى المهجع، يتناسى آلامه، بل يترفعُ عليها، ويجمع حوله «زملاءه» في تلقي الظلم والاضطهاد، ويتفنن أمامهم بتقليد الضباط والعناصر الذين كانوا يعذبونه، كيف يتكلمون، وكيف يضربون، وكيف يصلون التيار الكهرباء مع جسده،.. ولا يتقيد، في معظم الأحيان، بالعبارات التي سمعها منهم أثناء ضربه وإهانته، بل يخترع عبارات قريبة منها في المعنى والمضمون،... والسجناء، رغم آلامهم، وغربتهم، والظروف اللا إنسانية التي يعيشون فيها، كانوا يضحكون بصفاء، وكأنهم جالسون في النزهة التي يسميها أهل الشام «السيران»، ويسميها أهل إدلب «السيباني»!.. ولكن.. وللأسف، حينما علم مدير السجن بهذا الأمر.. أمر بإنزاله إلى زنزانة «منفردة» حيث أمضى بقية المدة وهو يرجع من التعذيب والإهانات إلى المنفردة ليجلس طيلة اليوم واضعاً وجهه في وجه الحائط!

طفش

حينما خرج «صاد صاد» من هذا المعتقل الرهيب.. فوجىء بأمر لم يكن يتوقعه على الإطلاق، وهو أن أهل بلدته لم يأتوا للسلام عليه وتهنئته بالعودة!! وهو يعلم،.. والكل يعلم، أن الخروج من سجن تدمر الرهيب يشبه الولادة الجديدة، فإذا تزوج صديق لك، مثلاً، واشترى صديقٌ ثانٍ داراً جديدة، وفرشها، وذهب ثالثٌ إلى الحج، ووُلد للرابع غلام، ولم تذهب لتهنئتهم، لن يسبب لهم ذلك أذى نفسياً، وأما الخارجُ من جحيم تدمر حافظ الأسد، فلا شك أنه سيموت من الغيظ إذا لم يأت الناس لتهنئته بهذا الخروج المظفر!

وكان هذا هو السبب الرئيسي لإقدام «صاد صاد» على مغادرة البلدة، مرة واحدة، وإلى الأبد.

تلقين

انقطعت أخبار «صاد صاد» عن أهل بلدته، ولم يعد يُسْمَعُ عنه سوى بعض الروايات المتضاربة التي تحكي عن تشرده، وازدياد فقره، ولكن كل الروايات أجمعت على أنه بقي محتفظاً بخفة ظله، حتى إنه، لدى مروره بإحدى القرى، شاهد تجمعاً من الناس عند أحد البيوت، وكانوا واقعين في حيص بيص، فاقترب منهم، وسألهم عن مشكلتهم، فقالوا له إن رجلاً منهم قد مات للتو، وإن شيخ القرية مسافر، ويريدون أن يتقدم رجل مسلم خبير بتلقين الأموات فيلقنه.

قال لهم «صاد صاد»: هذه المسألة بسيطة. أنا ألقنه.

فصدقوه، ورجوه أن يتقدم فيلقنه..

أعطى «صاد صاد» للمسألة حقها من الجهامة، والعبوس، والهيبة، جلس بجوار القبر، قبل أن يردوا التراب على الميت، وقال له بجلال:

- يا أخي.. لقنتك تلقينك.. وأنت مُتَّ على دينك.. وإذا طال حُكم حافظ الأسد.. فكلنا لاحقينك!

من أول شبابي

يعود تاريخ الطرفة التالية إلى الثمانينيات من القرن العشرين..

بطلُها صديقي الحشاش عبد الله فريكة..

كان عبد الله مولعاً بالمسلسلات التلفزيونية المصرية التيبيثها التلفزيون السوري على قناته الوحيدة،.. يتابعُها باهتمام وتركيز، ولا سيما أن بعض تلك المسلسلات كانت تَعْرِضُ، في بعض مشاهدها، أشخاصاً مصريين يدخنون الحشيش بواسطة الشيشة، وأثناء ذلك يُنَكِّتُون ويضحكون بصوت عالٍ مثلما يفعل هو حينما يكون مع زملائه الحشاشين.

ومعروف أن الموعد الرسمي لبث المسلسل اليومي، في الأحوال العادية، هو التاسعة والربع ليلاً، بعد نشرة الأخبار التي كانت تُبَثُّ في الثامنة والنصف، يليها بعض البرامج الإخبارية السياسية، وكلها، أعني النشرةَ والبرامجَ، كانت تلاحق أخبار القائد المناضل حافظ الأسد: استقبل..، ودع..، وجه..، أصدر..، أرسى..، تَنَبَّهَ إلى خطورة المؤامرة..، حَوَّلَ سورية إلى قلعة للصمود والتصدي ومقارعة الاستعمار.. إلخ.

وأما في أيام احتفالات الشعب السوري بذكرى الحركة التصحيحية المجيدة التي قادها سيادتُه فقد كانت الاحتفالات تستمر أسبوعين أو أكثر، وفي بعض السنوات تجاوزت شهراً كاملاً، بحيث أن عبد الله فريكة، خلال هذا الشهر، كلما مد يده وفتح التلفزيون، تظهرُ له صورة حافظ الأسد!..

ذات مرة كان عبد الله يشفط شفطة طويلة ومعمقة من سيجارة حشيش مدوزنة، وكان قد راوده اعتقادٌ بأن احتفالات الحركة التصحيحية المجيدة انتهت، وأن البرامج العادية قد عادت إلى طبيعتها، مما يعني أن التلفزيون سوف يستأنف بث مسلسله اليومي المفضل، وإذا بحافظ الأسد يظهر له، كالعادة، فالتفت إلى الشباب الجالسين معه، وقال عبارته التاريخية:

- اشهدوا علي يا شباب.. هذا الرجل لحقني من أول شبابي!

وأطلق ضحكة مجلجلة، سرعان ما أعدت الآخرين فانطلقوا يضحكون بسرور.

العبارة

في العاشر من حزيران «يونيو» ٢٠٠٠، توفي حافظ الأسد، بعد ثلاثين سنة من الظلم، والاستبداد، والبطش، وإلغاء الحياة السياسية،

ومحق الرأي المعارض، وتطويع الناس، وقهرهم، وإرغامهم على عبادته.. مات وفي رقبته أكثر من مئة ألف قتيل من الشعب السوري، عدا الذين صرفوا القسم الأكبر من أعمارهم في سجونه ومعتقلاته.

يحكى..

بعد وفاته بأيام، تقدم من القصر الجمهوري رجل تبدو عليه علامات الغفلة والسذاجة والهَبَل.. اعترضه الحراس، فقال لهم:

- ابتعدوا من طريقي.. أريد أن أقابل القائد المفدى حافظ الأسد.

ارتابوا في أمره، وكاد أحدهم أن يطلق النار عليه.. ولكن أحدهم أشفق عليه وقال له:

- يا أخي، أأنت لا تسمع الأخبار؟.. الرئيس حافظ الأسد مات.

قال: بجد؟

قال الحارس: الله وكيلك مات.

فشكره وانصرف.

بعد يومين أو ثلاثة، عاد الرجل إلى نفس المكان، وطلب مقابلة حافظ الأسد، فقال له أحد الحراس:

- الرئيس حافظ الأسد مات.

في المرة الثالثة اعتقلوه.. اقتادوه إلى أحد فروع الأمن.. ضربوه ضرباً مبرحاً وهم يسألونه عن السر الذي يخبئه، وما حكايته مع الرئيس الرحل. فقال:

- اعطوني الأمان.. أحكِ لكم الحقيقة.

قالوا: عليك الأمان.

قال: والله العظيم.. أعرف أنه مات.. ولكنني أطرب وأنتشي وأكاد أسكر حينما أسمع العبارة التي تقول: حافظ الأسد مات!

مجنون

كان صديقي الفنان «عبدو» يعتبر أن الجنون صنو الإبداع.. ولم يكن يزعل حينما كان صديقنا الأستاذ مازن يقول له، بكل وضوح: يا فنان يا مجنون.. الله يلعن جنونك..

وذات مرة لمحه مازن يمشي وسط الزحام في سوق الصياغ بإدلب، فناداه قائلاً: يا أستاذ عبدو..

فلم يرد.

قال له: يا أبو محمد..

لم يرد..

قال له: يا مجنون.

فرد على الفور: نعم؟

بالفعل مجنون

وبعد أن سافر «عبدو» إلى دمشق، واستقر فيها، أصبحتُ ألتقيه، ومجموعةً من الأصدقاء الآخرين، مرة كل شهر، ذلك أنني اعتدتُ، منذ سنين بعيدة، أن أمضي يومين أو ثلاثة، كل شهر، في دمشق.

تعرفنا، في دمشق، على رجل يدعى «ر. م»، يكبرنا بعشر سنوات على الأقل، وقد كان يعمل في إحدى المؤسسات الصحفية الحكومية، ثم تقاعد.. وهو الآن يشارك في أعمال صحفية متفرقة في الصحف الخاصة، ويعمل أحياناً في تنفيذ طباعة الكتب، لقاء أجر أو عمولة.

ذات مرة دعانا إلى منزله.. فذهبنا.. وحينما دخلنا فوجئنا بوجود مكتبة كبيرة في الغرفة المجاورة لغرفة الجلوس.

سأله عبدو: ممكن نتفرج على المكتبة؟

قال: طبعاً.. وَلَوْ.

فدخل. ولكنه خرج بعد قليل وهو يحمل كتاباً من تأليف «ر. م» عنوانه «حافظ الأسد بطل تشرين التحرير وتشرين التصحيح».

اقترب عبدو من «ر. م» وقال له دون تلكؤ:

- أنت كيف تستحسن أن تضع اسمك على كتاب كهذا؟ يا رجل.. ألا تخجل من نفسك؟!

(بعد أن خرجنا من منزل «ر. م» ذكَّرْتُ صديقي عبدو بلقب «مجنون» الذي كان يناديه به مازن، وقلت له بمنتهى الجد: أنت بالفعل مجنون)!

أوليا شَلَبي

هذه الطرفة واقعية، بالمعنى الحَرْفِي للكلمة.. وقد كنا، صديقي الأديب الراحل تاج الدين الموسى وأنا، طرفين أساسيين فيها، وأما الطرف الثالث فهو صاحبٌ لنا، من مناطقنا، «لنصطلح على تسميته لأجل التمويه: أ- ط»..

كان «أ- ط»، يحب مرافقتنا، والتواصل معنا، لأنه، رغم تجاوزه الخمسين من العمر، اكتشف في نفسه موهبة كتابة القصة القصيرة، ولعله كان يطمح أن يستفيد من تجربتنا «نحن الإثنين» الطويلة في مجال الإبداع القصصي.

المهم.. مرة.. في يوم من أيام سنة ٢٠٠٥،.. وبينما نحن نتعشى في مطعم «الأورينت هاوس» بإدلب.. إذ تطرق الحديث إلى الجنرال حافظ الأسد.. وإذا بصاحبنا «أ- ط» يقول، ببراءة:

- الله يرحمه.

قال له تاج ببراءة مماثلة ونزق: الله لا يرحمه!

فتضايق صاحبُنا، وشرع يبلع ريقه بصعوبة..

تدخلتُ، لأجل تلطيف الجو بينهما، وقلت لـ «أ- ط»:

- أنا وتاج، بالتأكيد، لم نتعامل مع المخابرات بصفة مُخْبِرين قط، ولا يوجد احتمال أن نتعامل معهم في المستقبل، فنحن نكرههم، وهم يكرهوننا، بالمقدار ذاته تقريباً، ونحن لا نزورهم إلا حينما يستدعوننا للتحقيق معنا.. والتحقيق مع تاج يطولُ، في العادة، لأنه لا يسكت لهم عن أية فكرة، و«يجافصهم» ويغيظهم.. وقد قال لهم أكثر من مرة «أنتم، بتسلطكم، ستخربون البلد»!.. لذلك هم يكرهونه بدرجة أعلى مما يكرهونني أنا على سبيل المثال.. فإذا كنت تترحم على الجنرال حافظ الأسد أمامنا، خشية من أن نشي بك- لا سمح الله- فيصيبك ضررٌ من الناحية الأمنية، فهذا تصور خاطىء، وبإمكانك أن تظهر على حقيقتك.. وسِرُّك في بير غميق.

قال: أنت غلطان.. أنا لو كنت أكرهه لأعلنت ذلك دون خوف من المخابرات أو غير المخابرات..

قلت: يعني أنت، حقيقةً، تحبه؟!

قال: أي نعم.. أنا أحب الرئيس الراحل حافظ الأسد الله يرحمه.

قال تاج بهدوء، رغم امتلائه بالغيظ:

- كان الرحالة في قديم الزمان، أمثال ابن بطوطة وأوليا شَلَبي، يبحثون عن الأشياء الغريبة، فيقول واحدهم «شاهدنا رجل له رأسان وأربع أرجل.. التقينا بامرأة لها عنق زرافة، أو رأينا غيمة واقفة بقرب الجبل، وعدنا في السنة التالية فوجدناها في مكانها».. ولنفرض أن أوليا جلبي قد حضر جلستنا هذه، فسيكتب في تاريخه:

«وقد مررنا، بظاهر مدينة تدعى إدلب، في مكان مشجر جميل يدعى «الأورينت هاوس»، وعثرنا هناك على رجل يحب حافظ الأسد»!!!

ابنك مطلوب

إن الممارسات الديكتاتورية التي مارسها أزلامُ بشار وماهر الأسد ضد المحتجين في السجون والمعتقلات السورية في فترة الانتفاضة «٢٠١١» ليست سوى كلام فارغ، ولعب أولاد «عِجْيَان» إذا ما قورنت بالبطش الشديد الذي مارسه أزلام حافظ ورفعت الأسد على المعتقلين من حزب الطليعة الإسلامي وجماعة الإخوان المسلمين في الثمانينيات من القرن العشرين..

«ملاحظة: لا ننسى أن حافظ الأسد قد حارب الشيوعيين، أيضاً، وبعض البعثيين غير المنضوين تحت لوائه، وبعض الناصريين الوحدويين الذي رفضوا الانضمام إلى الجبهة الوطنية التقدمية، وبطش بهم، ولكن على نحو أقل إيلاماً مما تعرض له الإسلاميون»..

وعدا عن فنون التعذيب التي مات هتلر وستالين وطواهما التراب ولم يتعلما إلا النذر اليسير منها، فإن أزلام حافظ الأسد الذين وَظَّفهم بصفة أعضاء في مجلس الشعب!! وأعطاهم رواتب جيدة، وقدم لكل واحد منهم رخصة سيارة فخمة،.. هرعوا، في سنة ١٩٨٠، إلى إصدار قانون رقمه «٤٩»، يحكم على كل من يثبت انتسابُه لجماعة الإخوان بالإعدام شنقاً حتى الموت، ومن كان ارتباطه بالجماعة عاطفياً ألقاهم في سجن تدمر، وأمر بإسدال الستار عليهم حتى إشعار آخر.

في تلك الفترة حدثت أشياء كثيرة تنتمي إلى الأشياء الطريفة.. التي لا يمكن أن يحدث مثلُها في أي مكان من العالم «لأنه لا يوجد مثل هذا النمط الديكتاتوري في أي مكان من العالم»..

منها أن رئيس فرع الأمن العسكري بإحدى المدن السورية الكبرى أمر رجاله بأن يأتوه بأسماء التجار الكبار في المدينة، وأن يأتوه بأسماء أبنائهم الذكور في العجل.

وحينما أصبحت القائمة أمامه على المكتب أرسل إلى كل تاجر منهم على حدة من يسرب له أن ابنه فلاناً «متورط» بالانتساب لجماعة الإخوان!

نفذت الأوامر بدقة.. وقبض رئيس الفرع المذكور مِنْ كل واحد مِنْ هؤلاء التجار مبلغاً يتراوح بين خمسة وعشرة ملايين ليرة سورية، بعملة تلك الأيام، أي قبل أن تبدأ فترة التضخم النقدي، لقاء تسوية أوضاع أبنائهم، و«نفي» صفة الإخوان المسلمين عنهم..

كيلو ذهب

وأما في فترة التضخم النقدي، أواسط الثمانينيات في أواسط الثمانينيات، فقد بدأت الأسعار ترتفع، على نحو مفاجىء، يومياً، ومن أطرف ما روي عن أحد رؤساء فروع أمن الدولة في إحدى المحافظات أنه أمر رئيس مكتبه بأن يذهب إلى أحد الصاغة المعروفين، ويلعب بأعصابه قليلاً، ثم يصله به هاتفياً.

ذهب رئيس المكتب إلى الصائغ وقال له: المعلم يسأل عنك.. أيش قصتك؟

تلعثم الصائغ «مع أنه مسيحي، ويستحيل أن يشك أحد بأنه من الإخوان المسلمين»! وقال:

- أنا؟! الله وكيلك لا توجد قصة ولا حكاية.. أموري كلها تمام.. وطوال عمري ما أخطأت ولا غششت و..

قال رئيس المكتب: طيب، سأصلك به.. إحك معه.

بعد قليل وجد الصائغ المسكين نفسه على اتصال مباشر مع هذا الشخص المرعب الذي بادأه بالكلام: بكم غرام الذهب اليوم؟

قال الصائغ: يا سيدي بمئة وخمسين ليرة.

قال الضابط آمراً: حسناً.. اشتر لي «كيلو».. ادفع ثمنه منك، وأنا أحاسبك في وقت لاحق.

قال الصائغ: أمرك سيدي.

بالطبع.. لم يدفع له شيئاً، لا في وقت آني، ولا في وقت آنف، ولا في وقت لاحق!!.. وبعد أيام أصبح غرام الذهب بمئة وخمس وسبعين ليرة.. وقتها اتصل به الضابط وقال له: بع كيلو الذهب الخاص بي، واحسب كم بلغ ربحي، وأرسله إلي!!!!!!!

الله يرضى عليك يا ابني

كان الملك المستبد الأكبر، الجنرال حافظ الأسد، في سبيل توطيد دعائم استبداده، يُعطي صلاحيات واسعة لأشخاص لا يمكن لأي مُتَشَكِّك، أو مُتَرَيِّب، أو مُتَهَيِّب، أن يساوره شك بولائهم «المطلق» له، وكان يسمح لهؤلاء، أيضاً، بتشكيل ممالك صغيرة، شريطة أن يَعْرِفَ هو أدق التفاصيل التي تدور ضمن هاتيك الممالك الصغيرة. «من أجل أن تبقى تحت سيطرته، بالطبع».

من هؤلاء الملوك الصغار رجل يُدعى «فاء غين»، تسلم، في عز دين الاضطهاد الذي تعرض له الإخوان المسلمون، إدارة سجن تدمر.

في «مملكة فاء غين» الرهيبة، لم تكن الزيارات وحدها هي الممنوعة، بل إنه لم يكن يحق لأي إنسان من أهالي المعتقلين أن يعرف ما إذا كان ولدُه موجوداً هنا أم لا، وهل هو على قيد الحياة.. أم لا.

السيدة والدة «فاء غين» أرادت أن تساعد بنات جنسها من النساء السوريات المفجوعات!! فاشترت بضعة دفاتر من تلك التي يستخدمها طلاب المدارس، ذات الـ «٢٠٠» صفحة، وشرعت تستقبل السيدات في بيتها، بعدما عممت شرط الاستقبال على الجميع، وهي أنها لا

تقبض لقاء خدماتها أي نوع من العملة، تطبيقاً للمثل الشعبي القائل «الناموس والفلوس لا يجتمعان في القادوس».. ولكن.. إذا أرادتْ الواحدةُ منهن أن تقدم لها هدية، فلا مانع.. لأن الهدية شيء جيد ومقبول.. وأما الرشوة فعيبٌ وحرام!.. ويُفضل أن تكون الهدية إسورة ذهبية، مهما تكن صغيرة أو كبيرة.. لا فرق.

وإثباتاً لحسن النية، وللمصداقية، وللأمانة، كانت تطلب من السيدة التي في زيارتها أن تترك قطعة الذهب معها، وتغيب يومين أو ثلاثة ثم تعود، وفي هذه الأثناء كانت تسأل ابنها البارّ في الهاتف: «يا إبني فاء.. أريد أن أعرف.. هل السجين فلان الفلاني عندك؟».. فإذا قال لها لا، فإنها تعتذر، بكل لباقة للسيدة، عن أنها لن تستطع مساعدتها، وإذا قال لها: نعم موجود.. كانت تتناول قطعة الذهب من الزائرة، وتقتطع ورقة من الدفتر فئة الـ «٢٠٠» صفحة، وتكتب عليها: ولدي الغالي فاء.. يرجى مساعدة السيدة فلانة، والسماح لها بزيارة سجينها فلان الفلاني.. الله يرضى عليك يا ابني.

ملاحظة: لا يستطيع أخو أخته أن يقدر كميات الذهب التي جمعتها هذه السيدة الفاضلة من أهالي المساجين، في بضع سنوات من الثمانينيات، وبضعة دفاتر من فئة الـ «٢٠٠» صفحة...

باص من الإخوان «نكتة»

حلب- أوائل الثمانينيات من القرن العشرين..

كان ثلاثة من عناصر المخابرات قد اندسوا بين الناس في أحد باصات النقل الداخلي بمدينة حلب، من أجل أن يراقبوهم، ويصغوا إلى أحاديثهم الجانبية.

وفجأة.. لقموا مسدساتهم، وطلبوا من الركاب والجابي أن يرفعوا

أيديهم إلى الأعلى، وأمروا السائق أن يذهب بهم إلى الفرع الذي يتبعون له!!.. ففعل.

عند باب الفرع، بقي إثنان من العناصر ضمن الباص، من أجل حراسة الركاب المعتقلين، بينما نزل زميلهم الثالث، وهو على ما يبدو قائد الدورية، وهرع إلى مكتب معلمه، وقال له، والفرح يكاد يغمره:

- يا سيدي، ألقينا القبض على باص مليء بالإخوان المسلمين!

دهش المعلم وسأله: كيف عرفت أنهم إخوان؟

فقال: سمعت الجابي، يا سيدي، يقول لهم: ادفعوا لنا أجرة الركوب يا «إخوان»!

الألقاب

عُرف الجنرال حافظ الأسد، خلال حكمه الذي استمر ثلاثين سنة قبل أن يورثه لابنه، بصفاتٍ وألقاب عديدة، ابتكرها أزلامُه وأتباعُه وخصيانُه ومنافقوه.. فهو القائد التاريخي، الكبير، الملهم، الرمز، المفدى، الفذ، العبقري، الاستثنائي.. إلخ.. وقد بلغت الخسةُ والنذالةُ والصَّغَار برجل يدعى «أ. ق» كان حافظُ الأسد قد تكرم عليه بتعيينه عضواً في مجلس الشعب!.. أنْ كان بين جُلاسه في مقهى القصر بحلب، أواخر التسعينيات، فتصدر إلى الخلف مثل الكبش «المرياع» وقال مزهواً:

أنا- ولا فخرُ- أول من أطلق على السيد الرئيس لقب «سيد هذا الوطن»، فإن زَعَمَ أمامكم أحدٌ بأنه سبقني إلى هذا اللقب التاريخي فلا تصدقوه!

وبعد رحيل حافظ الأسد عُرف بلقب واحد هو: القائد الخالد! «وهذا التسمية لا نعرف من كان رائدُها»..

الصفات الحميدة

لقد تم ترتيب الأمور، والاتفاق ، منذ بداية انقلاب الحركة التصحيحية، على إلصاق كافة الصفات الحميدة بحافظ الأسد، ونفي أية صفة وضيعة أو دنيئة عنه، وإذا لزم الأمر إلصاق الصفات الوضيعة والمنحطة بغيره من أفراد الحاشية، أو من الشعب، أو من قادة أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية.. وسرعانَ تحول أفرادُ الطغمة الحاكمة المحيطة به، مهما كانوا أقوياء، ومسيطرين، وأصحاب نفوذ، برضاهم، وحسن اختيارهم، إلى شخصيات ثانوية «كومبارس»، فإذا توجهتَ إلى أحدهم بالسؤال: «مَنْ أنت؟»، أجابك، بكل ثقة، وتواضع، وهدوء، أنا جندي محارب صغير في جيش القائد التاريخ الـ... الـ... الـ... حافظ الأسد!

هذا بالنسبة إلى الحاشية الحاكمة، أعني الطوق الأول من الأطواق المحيطة بعنق نظام الأسد، وأما الأشخاص «الفراطة» الذين «تَصَدَّقَ» عليهم نظام الأسد ببعض المناصب، كمنصب وزير، أو مدير عام، أو عضو قيادة قطرية، أو محافظ، أو عضو مجلس الشعب.. إرضاء لشعب مدينة، أو عشيرة، أو مجموعة بشرية ما، فهؤلاء أقرب من يكونون إلى الناس النكرات الذين يُلَخِّصُ حالَهم المثلُ الشعبي القائل «سَنْكُوح بَنْكُوح.. تعا تعا.. روح روح»..

حكى لي «الأخرس»..

حكى لي الأخرس عن رجل من حلب اسمه (أ.ق) تناهت إلى سمعه، في مطلع الحركة التصحيحية، أخبارٌ تقول إن حافظ الأسد يتصرف بالدولة السورية تصرف المالك بملكه، والوارث بإرثه، وأنه آخذ- يومئذ- بتعيين من يراه تافهاً، وإمعة، وغبياً، وسخيفاً، ومأجوراً، وعديم الكرامة، في مجلس الشعب الذي أطلق عليه السوريون فيما بعد لقب «مجلس

التصفيق والدبكة»، فذهب إليه، وزعم أمامه، زوراً، وبهتاناً، وكذباً، أن أهل حلب يحبونه، ويعشقونه، ومستعدون لأن يحلفوا برأسه الأيمان، ثم انتظر لحظات حسبها دهوراً حتى نطقت شفتا الأسد الهصور بالمشيئة التي لا ترد:

- عينوه عضواً في مجلس الشعب!

فكان ذلك..

وبقي (أ.ق) يعمل بجد، وإخلاص، ودأب، وعصامية، ليثبت لـ (big boss) الأسد أنه عند حسن ظنه في الصَّغَار، والتفاهة، والانبطاح، حتى إنه دخل ذات مرة إلى مقهى القصر بحلب، فوجد مجموعة من المثقفين، فانخرط بينهم (مثلما ينخرط الدبُّ فوق العنب)، وقال لهم:

- أنا، ولا فخرُ، أول من أطلق على السيد الرئيس حافظ الأسد عبارة (يا سيد هذا الوطن!)، فلئن زعم أحد أمامكم أنه سبقني إلى هذه العبارة فلا تصدقوه!..

وكان أحد المخبرين الأشاوس، جالساً في المقهى، بالمصادفة، فنقل الخبر إلى معلمه، ومعلمه نقلها لفوق.. حتى وصلت إلى حافظ الأسد في موسم «تعيين» أعضاء المجلس للدورة التالية، فكرر الأسد مشيئته قائلاً:

- مددوا له دورة تانية.

تطويط

بقي (أ.ق) ينافق، ويتقصد إرسال الأخبار لـ (فوق)، وبقي الأسد يمدد له، دورة وراء دورة، إلى أن جاء يوم ظهر فيه أناسٌ لديهم فتوحات، وابتكارات، وإبداعات، في مجَال الكذب والدجل والنفاق والتزلف، ولحس الـ .. جعلت فتوحات (أ. ق) وابتكاراته وإبداعاته تبدو (دقة

قديمة).. ووقتها (طَوَّطُوا) له.. وطلبوا منه التفرغ لحب القائد الملهم في البيت!..

ولكنه لم يقعد في البيت.. بل ساح في الشوارع..

وقد شوهد في أكثر من مكان وهو (يبكي)، وينتحب.. ويحلف أغلظ الأيمان على أنه الرائد الأول في الكذب والدجل ولحس الـ (...)!

الفصل العاشر- الحاشية الكريمة

تصريحات

اتضح، من خلال انتفاضة الثامن عشر من آذار «مارس» ٢٠١١، أن الشخصيات المحيطة ببشار الأسد، كلها، من دون استثناء، ذات طبيعة تزيينية، فهي غيرُ ذات رأي، أو قيمة، ولا يحق لها الظهور على وسائل الإعلام إلا حينما تُؤمر بذلك، لتقول، أثناء هذا الظهور المحدود، ما هو مطلوب منها أن تقوله، دون زيادة، أو نقصان، أو خطأ، أو مسخرة، أو كلام فارغ!

والشيء الطبيعي أن تقول هذه الشخصيات التزيينية شيئاً، وتفعل السلطاتُ السياسيةُ والأمنيةُ شيئاً آخر، حتى ولو كان مناقضاً تماماً لأقوالها، «وكأن هذا نوعٌ من المجاكرة والاستهزاء والإغاظة!»..

من هنا نستطيع أن نفهم طبيعة ظهور السيدة بثينة شعبان، الناطقة الرسمية باسم الرئاسة، بعد حوالي أسبوع من بداية الأحداث، لتُطَمْئِنَ الناس بأن السيد الرئيس «رئيسها» قد أمر بعدم إطلاق النار على المتظاهرين، وفي اليوم التالي، بالضبط، أطلقتْ قواتُ الأمن النار على كل الذين سولت لهم نفسهم بالخروج إلى الشارع، في مختلف المدن السورية، ليس بقصد التخويف، أو التخريع، وإنما بقصد القتل «العَمْد»!.. وكانوا بالمئات!.. وفي اليوم بعد التالي، قتلت قواتُ الأمن العتيدةُ الأهاليَ الذين خرجوا لتشييع جثث شهدائهم، وهكذا أصبح حبلُ القتل العمد على الجَرَّار.

وأما النائب المسكين السيد فاروق الشرع، فقد تعرض لمقلب أسوأ بكثير من المقلب الذي تعرضت له زميلتُه «شعبان»، إذ أنه نطق «بعد سكوت طال حتى ظننَّا أن المياه قد يبست في زلاعيمه!» بجملة صغيرة، وحيدة، وهي أن الرئيس بشار الأسد سيخطب في الشعب، خلال الأيام القادمة، وسيقدم للشعب، أثناء هذا الخطاب، أشياء تُفْرِحُه!

وتبين، حينما حقت الحقيقة، وقُرعت القناةُ بالقناة، أن الرئيس لم يأت ليخاطب الشعب، مباشرة، كما يليق بشعب منتفض، حر، كريم،.. بل إنه قرر الذهاب إلى «مجلس الشعب»، ضمن احتفالية كرنفالية كبيرة مما يسميه أشقاؤنا المصريون: هيصة وزنبريطة.

«تاريخ الخطاب ٠٣ / ٣ / ١١٠٢».

الغضنفر

إن الممثل التلفزيوني المدعو «صباح عبيد»، وهو واحد من فناني النسق الثالث أو الرابع في سورية، ولعل أفضل دور قام به، طيلة حياته الفنية، هو دور «الغضنفر» في مسلسل للمخرج ذي الشخصية المتعالية المتعجرفة «نجدت أنزور».. وقد بسم الزمان لصباح عبيد، وبسمت له آلية تعيين المناصب في النظام الشمولي، فعينوه، بموجب انتخابات حرة ونزيهة، نقيباً للفنانين في سورية!!

ملاحظة عاجلة أولى: يجري تعيينُ رؤساء النقابات المهنية التي تعتمد في أنظمتها الداخلية على الانتخابات، بسهولة بالغة، إذ يرسلُ أحدُ المراكز الأمنية الكبرى، أو مكتبُ الرئيس في القصر، أو مكتبُ العميد «ماهر الأسد» قائد الفرقة العسكرية الرابعة، تسريباً شفوياً إلى القائمين على الانتخابات في تلك النقابة، مفادها أن فلاناً الفلاني هو مرشح تلك الجهة أو ذلك المكتب لهذا المنصب، فيهبُّ الذين

يهمهم الأمر، كلهم، لتنفيذ هذا التوجيه، وجَعْل فلاناً الفلاني يفوز بأغلبية ساحقة..

ملاحظة عاجلة ثانية: يكفي أن نقول إن نقابة الفنانين السوريين تضم شخصيات فنية كبيرة جداً، مثل «هيثم حقي» و«منى واصف» و«خالد تاجا» و«بسام كوسا» و«حاتم علي»، والعشرات من أمثالهم، لندرك فداحة القرار الذي أوصل المدعو صباح عبيد إلى قمة هرم النقابة.

بدأ صباح عبيد عهده الميمون بإطلاق حملة كبيرة لمنع الفنانات اللبنانيات الشهيرات «هيفاء وهبي» و«نانسي عجرم» و«دومينيك» من الغناء في سورية، بحجة ما أسماه «مكافحة التلوث السمعي»، وحماية أسماع الشعب السوري من هاتيك المطربات!

ملاحظة عاجلة ثالثة: صدر هذا القرار عن النقيب صباح عبيد في عصر انتشار الفضائيات التلفزيونية، حيث المواطن السوري قادر على مشاهدة أكثر من ألف محطة تلفزيونية، ومن ثم بإمكانه مشاهدة المطربات المذكورات، وسماع أصواتهن مئة مرة في النهار القصير، شاء ذلك أم أبى.. وإذا أراد مواطن ما أن «يُجاكر» هذا النقيبَ الغشيم فإن بإمكانه أن يقتصر على مشاهدة أغاني هؤلاء المطربات، وحدهن..

ملاحظة غير عاجلة: ذَكَّرَني قرار السيد صباح عبيد المتعلق بمنع الفنانات المذكورات من الغناء في سورية بفصل طريف جداً من كتاب «أخبار الحمقى والمغفلين» للعلامة ابن الجوزي، يتحدث فيه عن أمير مغفل، هرب منه طائرٌ، فأمر بإغلاق أبواب المدينة، لئلا يتمكن الطائر من مغادرتها!!

ملاحظة عاجلة رابعة: استطاع السيد صباح عبيد، خلال قيادته لنقابة الفنانين، أن يخلق لنفسه عدداً كبيراً من الأعداء ضمن الأوساط

الفنية، والصحفية، والأدبية، فاضطر مُصْدرو الإيعازات الذين «حطوه» نقيباً لأن «يشيلوه»، غير آسفين عليه بالطبع..

ولأنه كان، في تلك اللحظة التاريخية، في أوج عطائه في مجال الإخلاص للسلطة، فقد أوعز الشباب لمن يهمه الأمر أن «يعينوه» عضواً في مجلس الشعب!.. فكان ذلك.

الخطاب

وفي يوم الثلاثين من آذار «مارس» تحول الشعب السوري، عن بكرة أبيه، من مشاهدة القنوات الفضائية التي أسماها الإعلام السوري «القنوات المُغرضة».. وهي «الجزيرة» و«العربية» وال «بي بي سي» و«فرانس ٢٤» و«الحرة» و«الحوار»، إلى «الفضائية السورية» التي قلما يشاهدها أحدٌ لكونها مختصة بالكذب والتضليل، من أجل أن يتابعوا- بلهفة وشغف- الخطاب الذي سيلقيه الرئيس الذي سيسعدهم- كما قال فاروق الشرع- .. وفجأة.. اندفع عضو مجلس الشعب صباح عبيد، وكأنه الغضنفر، إلى خارج المجلس، وجمع حوله مجموعة من الأشخاص، ربما كان بعضهم أعضاء في هذا المجلس، وشرع يدبُك، بينما انقسم الآخرون إلى فريقين، أحدهما اختص بالتصفيق، والثاني انخرط معه في الدبكة!

تصفيق وشعر وزجل

يصعب، ويندر، وقلما، ويستحيل أن.. يكون قد وُجد في العالم، القديم أو الحديث، ملك، أو أمير، أو سلطان، أو حاكم، أو رئيس جمهورية، يدخل إلى مجلس الشعب أو البرلمان، أو مجلس النواب، أو مجلس الشيوخ، أو مجلس الأمة، مثلما دخل بشار الأسد إلى مجلس الشعب ظهيرة «٣٠ / ٣ / ٢٠١١».. فعدا عن الدبيكة الذين قادهم صباح عبيد

في الشارع، رأينا أعضاء في المجلس كباراً بالسن، تظهر بدلات أسنانهم جلية للعيان أثناء افترار وجوههم عن ضحكات الفرح برؤيتهم بشار الأسد شخصياً، يسدون عليه الباب، ويلمسون على جسمه بأيديهم، وكأنهم يتبركون به، بينما الأعضاء الموجودون في الداخل يصفقون ويصرخون بصوت واحد: بالروح، بالدم، نفديك يا بشار، الله، سورية، بشار وبس.. وحينما وصل إلى المكان المخصص لإلقاء الخطاب، بالسلامة، وباشر بإلقائه، بدأ هؤلاء الأعضاء «السيناتورات» يقاطعونه بالتصفيق والهتاف وإلقاء الشعر والزجل، وكان هو يضطر لأن يضحك، رغم أن عدد الشهداء في البلاد السورية، على أيدي قوات الأمن و«الشبيحة» كان قد قارب المئتي شهيد.. وفي حالة تجل عظيمة، توقف حضرته عن قراءة الخطاب من الورقة وقال: أنتم تقولون «الله، سورية، بشار وبس»، وأنا أقول: «الله، سورية، شعبي وبس»!، فضج أعضاء المجلس بالتصفيق والضحك وكأن أشخاصاً غير مرئيين كانوا يدغدغونهم في خواصرهم!.

ضمن هذا الخطاب التاريخي الذي تحدث فيه بشار عن مؤامرة خارجية تستهدف أمن سورية واستقرارها، وأطلق حزمة من الوعود الإصلاحية غير محددة المعالم، وردت عبارة واحدة واضحة وهي: «إذا فرضت علينا المعركة فأهلاً وسهلاً بها»..

وبمجرد ما انتهى الخطاب خرج ألوف المواطنين في مختلف المدن السورية في مظاهرات احتجاج على هذه المهزلة..

وخرجت، كذلك، قطعان من الأمن والشبيحة، وقتلوا من السوريين الكثير..

رئيس العالم

ولعل أطرف ما حصل في ذلك اليوم، أن أحد الأعضاء المعينين في مجلس الشعب وقف وقال لبشار الأسد: أنت يا سيادة الرئيس قليل

عليك أن تكون رئيس الأمة العربية، أنت يجب أن تكون رئيس العالم!

علمتُ من بعدُ أن هذا «السناتور» من بلدة «قلعة المضيق» التابعة لمحافظة حماه، وهو يمتلك محطة وقود، وقد قام شبان غاضبون من البلدة، بمجرد ما سمعوا عبارته التاريخية، بإحراقها، وحينما عاد إلى قريته، تلقوه، وشرعوا يضربونه، ويقول له أحدهم:

- يا أخي أنت قليل عليك أن تكون صاحب محطة محروقات في قلعة المضيق.. أنت يجب أن تكون رئيس شركة «محروقات»، بل يجب أن تكون وزيراً لـ «النفط»، يلعن أبو اللي «نَفَطَك»، أنت يجب أن تكون رئيس منظمة «الأوبك»!

بالغلط

في الحادي والثلاثين من تموز «يوليه» ٢٠١١، أي في عتبات رمضان، طَوَّقَ الجيش العربي السوري الباسل مدينة حماه بالدبابات والآليات الثقيلة.. استعداداً لاقتحامها وقَتْل بعض أهلها، وترويع الآخرين وردعهم لئلا يفكروا، مجرد تفكير، بمواصلة الثورة.. فاستنفرت وسائل الإعلام العربية والعالمية للتنديد بهذا الفعل.. وهذا ما حدا بوزير الخارجية وليد المعلم إلى عقد مؤتمر صحفي قال فيه:

- إن قنوات التضليل الإعلامي المعادية للشعب السوري تُزَوِّر الحقائق، وتقول إن دباباتنا وآلياتنا الثقيلة قد شوهدت وهي في طريقها إلى «حماه».. والحقيقة أنها كانت ذاهبة إلى «إدلب»!

وعلى ذكر المعلم

(إن وزير خارجية النظام الديكتاتوري العائلي السوري وليد المعلم، لمن لا يعرفه، شخص بدين للغاية، فهو، على ما يبدو شَرِهٌ للطعام)..

استمرت الثورة «السلمية» في سوريا حوالي ثمانية أشهر، «قبل أن تتعسكر».. وكان النظام الإرهابي بحاجة إلى ذريعة لقتل الناس العزل، فاستنفر أتباعُه، والناطقون باسمه، واستنفرت أجهزتُه الإعلامية، في الليل والنهار، ليسَوِّقوا روايتهم المزورة القائلة بأن الثورة مسلحة وليست سلمية..

ضمن هذا السياق عقد الوزير وليد المعلم «في ٢٨ / ١١ / ٢٠١١» مؤتمراً صحفياً، وقال للصحفيين: الآن سنريكم شريطاً مصوراً يثبت، بالدليل القاطع، أن الثورة مسلحة منذ البداية..

وعرض الشريط الذي يُظهر رجالاً ملتحين، في أماكن متفرقة، يطلقون النار في اتجاهات مختلفة، «دون أن يُرينا الجهة التي يطلقون النار عليها، ودون أن نتبين نحن ما إذا كان مطلقو النار ثواراً أم من رجال المخابرات السورية»..

فجأة.. دخل شاب، اقترب من وليد المعلم، همس له بشيء ما، وإذا به يعتذر عن إكمال المؤتمر ويغادر القاعة مسرعاً.

وجلسنا نحن المتفرجين نضرب أخماساً لأسداس، عسانا نعرف ما هو الخطب الجلل الذي جعل وزيراً بهذه الضخامة يضطرب و«يتكركب» ويخرج من القاعة، بمثل هذه السرعة.

قال قائل: من المحتمل أن يكون النظام الديكتاتوري قد سقط، والعصابة الحاكمة هربت من البلاد، وجاء مَن ينبه الوزير «المعلم» إلى ضرورة الإسراع باللحاق بصحبه الهاربين.

وقال آخر: ربما ارتكب «المعلم» هفوة، أو زلة، فـ «خرج عن النص» المكتوب له من قبل القيادة الأمنية العليا التي تحكم سوريا منذ أربعين عاماً.. فاستدعوه ليحاسبوه على الزلة ويفركوا أذنه!

فجأة فقس أحد أصدقائنا بإصبعيه الإبهام والوسطى، وقال:

- بس بس.. أنا عرفت السبب، وعرفت ما قاله الفتى للوزير «المعلم» وجعله يهرع خارج القاعة مسرعاً..

سألناه متلهفين: أحقاً عرفت؟

قال: نعم.. أخمن أنا قال له: أستاذ وليد.. صار وقت الغداء!!

ملاحظة ضمن هذا السياق

واحد سوري خبيث قال إن قرار تعيين السيد «وليد المعلم» بصفة وزير خارجية قد تضمن بنداً يعفيه من مرافقة رئيس الجمهورية إلى صلاة الجمعة، وصلاة العيد، لأسباب تتعلق بعملية «السجود»!!..

إرهابيون لبنانيون

في اليوم التالي للمؤتمر الصحفي عرضت المحطات الفضائية اللبنانية مقابلة مع شبان لبنانيين، ملتحين، كنا شاهدناهم في شريط وليد المعلم، «وهم مسيحيون أبرزُهم شاب يدعى داني دنش» وقالوا إن الشريط قد صور في منطقة «سقى طرابلس» وهو يظهرُ لقطات لهم حينما كانوا يخوضون معارك في درب التبانة وجبل محسن سنة ٢٠٠٨..

وقال داني دنش:

- عيب على وليد المعلم أن يقدمنا على أننا إرهابيون!

غير مسبوق

في بداية الثورة صرح وليد المعلم لمراسلي الصحف والفضائيات بقوله: سيكون لدينا في سوريا، بعد تطبيق حزمة الإصلاحات التي تحدث عنها الرئيس بشار الأسد، نظاماً ديمقراطياً «غير مسبوق».

أحد الظرفاء شرح لنا هذه العبارة قائلاً:

كلمة «مسبوق» في حلب تعني «مزنوق».. يعني مضطر لأن يذهب إلى الحَمَّام وينقض وضوءه.. و«غير مسبوق» يعني مرتاح على الآخر!

فلحوط

ارتفعتْ أسهمُ السيد صابر فلحوط «المولود سنة ١٩٣٥» عند الجماعات الإعلامية الثوروية الديماغوجية في سوريا منذ مطلع الستينيات، أي بعد نجاح انقلاب الثامن من آذار «مارس» ١٩٦٣، واستمرت هذه الأسهم مرتفعة زمناً طويلاً في عهد الرئيس حافظ الأسد قائد انقلاب الحركة التصحيحية، وبقيت كذلك حتى بعد تجاوزه سن التقاعد القانونية في زمن الرئيس بشار الأسد.. وذلك بسبب مقدرته الاستثنائية على نظم أبيات شعرية تصلح للهتافات التي شاعت وسادت طيلة سنيّ الاستبداد والديكتاتورية الشمولية.. فبينما يكون أيُّ قائد أو مسؤول سياسي يقرأ خطاباً إنشائياً تضليلياً، إذ تمر جملةٌ فيها مبالغة إنشائية عالية، فتنفجر القاعة بالتصفيق، وأثناء ذلك يقف أحد المنافقين البارزين، ويلقي بعض الأبيات من شعر صابر فلحوط.. كقوله، مثلاً:

ينطحُ الغيمَ شموخي فعلى
جبهةِ الشمس بقايا مضربي
أنا بعثٌ وليمتْ أعداؤهُ
عربيٌّ عربيٌّ عربي

وعلى الرغم من أن فلحوط يحمل الإجازة في الأدب العربي، وليست لديه أية خبرة أو ممارسة لها علاقة بالشؤون الصحفية، فقد أوعز الرئيس حافظُ الأسد إلى من يهمه الأمر بتعيينه رئيساً- مدى الحياة- لاتحاد

الصحفيين السوريين، فأوعزوا بدورهم إلى القائمين على مؤتمر اتحاد الصحفيين بأن ينفذوا الأمر، فانتخبوه رئيساً لاتحادهم، وظلوا ينتخبونه حتى برزت عبقرية رجل لا يقل عنه نفاقاً وديماغوجية وسطحية، هو «الياس مراد»، فعينوه نقيباً للصحفيين، وأمروا صابر فلحوط بالتفرغ لحب الوطن.. وهذا ما كان.

ملاحظة: بالطريقة ذاتها عُين المدعو علي عقلة عرسان رئيساً لاتحاد الكتاب العرب من سنة ١٩٧٨ إلى سنة ٢٠٠٥!

مؤتمر

ملاحظة: إن السخرية من الأسماء و«الأشكال» تنتمي إلى الفكاهة غير العادلة، لأن الإنسان لا يدَ له اختيار اسمه، ولا في شكله.. ومع ذلك فقد استهوتني طرفة قرأتُها على الفيسبوك، لها علاقة باسم صابر فلحوط.. وهي التالية:

كان صابر فلحوط يمثل الصحفيين السوريين في مؤتمر للصحفيين العرب عقد في القاهرة، وحينما جاء دوره ليلقي كلمته، وقف عريف الحفل وقال:

- نبقى الآن مع كلمة اتحاد الصحفيين السوريين يلقيها الأستاذ صابر «فَحْلوط»!!

وحينما خرج الأستاذ صابر من مكان جلوسه، ووقف وراء الميكروفون، قال مصححاً:

- عفواً، اسمي صابر فلحوط.. وليس «فَحْلوط»!

فتمتم عريف الحفل بينه وبين نفسه: بَرْضُه وحش!

***

الفصل الحادي عشر- المواطن السوري

سجين طليق

المواطن في الدولة الأمنية- بحسب المفكر طيب تيزيني- معتقلٌ تحت الطلب. بمعنى آخر: هو حر ظاهرياً، ويبقى حراً، ربما لسنين طويلة، أو إلى أن يقرر أحدُ الفروع الأمنية استدعاءه، أو اعتقاله، ليُصبحَ مصيرُه، منذ لحظة الاعتقال، في علم الغيب.. وحينما يخرجُ من المعتقل، فإنه يعود إلى وضعه السابق، طليقاً على نحو مؤقت، معتقلاً تحت الطلب.

ومعلوم أن «الكاتب- الأديب- الصحفي»، مثل حضرتي، يمتلك شيئاً من الحصانة المعنوية، بمعنى أن «الشباب» يَعُدُّون للعشرة، أو لأقل من العشرة، أو أكثر، قبل أن يقرروا اعتقاله، ولكنهم، بعد الانتهاء من العد، يعتقلونه، ويهينونه، ويسبون أمه وزوجته وأخته وابنته، ويلفقون لهم ما يشاؤون من التهم، و«ينقعونه» لديهم حتى يتغير مزاجُهم، إذا تغير،.. فيطلقون سراحه.. وأحياناً ينسونه لديهم، فلا يخرج إلى الهواء قبل مرور زمن طويل..

ومع أنني، محسوبكم، اسْتُدْعِيْتُ، في السابق، كثيراً، إلى الفروع الأمنية الثلاثة، الأمن العسكري، والأمن السياسي، وأمن الدولة «لم يكن الأمن الجوي موجوداً بقوة على زماننا»، وتعرضتُ، في كل مرة، للسين والجيم، إلا أنني لم أُعتقل، ولم أنم في منتجعاتهم قط..

ولكن احتمال توقيفي واستضافتي أخذ يكبر أثناء الأحداث الأخيرة

التي ابتدأت في «١٨ / ٣ / ٢٠١١»، بسبب تعليقاتي على الفيسبوك، والبيانات التي وقعتُ عليها، وفيها انتقادٌ واستنكار صريحان للحل الأمني والكذب الإعلامي اللذين ينتهجُهما «النظام» عن سابق تصميم وإصرار.. وشرع أصدقائي الخُلَّص ينصحونني، عبر رسائلهم الفيسبوكية، بتخفيض لهجتي قليلاً، لئلا اذهب إلى «بيت خالتي» مثلما ذهب الأساتذة فايز سارة ونجاتي طيارة وسهير الأتاسي وحازم نهار وجورج صبرة وآخرون تعدادُهم بالعشرات.. بل إن طيب تيزيني نفسه، البالغ من العمر سبعاً وسبعين سنة، لم ينجُ من استضافتهم لأنه تضامن مع أسر المعتقلين، مما يعني أن هذا التضامن جريمة يعاقب عليها «اللاقانون» السائد في البلاد منذ عشرات السنين.

أنا بهيمة يا أستاذ

وأصبحتُ، بناء على هذا الجو، مثل غالبية أفراد الشعب السوري، أعيش متلفتاً كالعصفور الدوري، وينقبض قلبي كلما رن جرس الباب، أو رن الهاتف أو الموبايل.. دواليك إلى أن كان أحد أيام الجمعة، الساعة السادسة مساء، رُن جرس الباب، فخرجت إليه، ونظرتُ عبر العين الساحرة، فشاهدتُ وجه رجل لم أكن أعرفه، وتوقعت أن يكون وراءه عناصر دورية كاملة.. فقلت لنفسي: يبدو أن المنيَّة دنت. فتحتُ الباب، وإذا بالرجل وحده، وكان على وجهه وجسمه آثار ضرب مبرح.. وما إن رآني حتى قال لي:

- أنت الأستاذ خ... أعرفك جيداً. رأيتك أكثر من مرة على التلفزيون.. شُف، ترى أنا جاي لعندك حتى أقول كلمتين وأمشي.. يا أستاذ أنا بهيمة.. بعيد عنك!

على الفور.. زالت من نفسي فكرة الاعتقال، وأوحت لي آثار الضرب

على وجه الرجل أنه ينتمي إلى فصيلتنا نحن المُضْطَهَدين.. فدعوتُه لأن يدخل، وقدمت له فنجاناً من القهوة، وطلبتُ منه أن يروي لي قصته.. ففعل.

قال: أنا، يا أستاذ، من ذوي الاحتياجات الخاصة.. ساقي اليسرى فيها تشوه خَلْقي، وحينما أدوس عليها تؤلمني فأضطر لأن أعرج.. ومن كم سنة سمحوا لنا بشراء سيارات بسعر مخفض «بنصف رسوم جمركية»، ووضعوا لنا على اللوحة إشارة تدل على أننا مُعَاقون. المهم، اليوم، أنا طالع بسيارتي، في طريق سرمين، وإذا أنا وجهاً لوجه مع مجموعة كبيرة من الناس، كانوا قريبين من مبنى حكومي، وكان ثلاثة منهم يحملون صور الرئيس بشار الأسد. تقدمت مني مجموعة منهم وسألوني: أنت مع من ولاك؟

قلت: أنا؟ طبعاً مع السيد الرئيس...

ولكي أثبت لهم حسن نيتي أضفت: أنا من «الشبيحة»!

وعينك لا ترى- يا أستاذ- إلا النور.. أنزلوني من السيارة وانهالوا علي ضرباً، بالأكف والقبضات والأرجل. وأثناء ذلك اكتشفتُ فداحة الخطأ الذي وقعتُ فيه. فهؤلاء كانوا من المتظاهرين المطالبين بالحرية، وفي لحظة اقترابي منهم كانوا قد اقتلعوا صور الرئيس بشار الأسد من واجهات المبنى الحكومي، وبعد أن أوقفوني بدؤوا بتكسيرها وهم يصيحون.. عاشت الحرية.. يسقط بشار الأسد، يسقط الأمن والشبيحة!

المهم، بعد هذه المعمعة، وبعد أن امتلأ وجهي ورقبتي بالجروح والكدمات، واتسخت ثيابي، وتهرَّأتْ سحنتي، تركوني بحالي، فركبتُ السيارة، وتوجهت نحو مدينة سراقب، لأنه لم يكن من الممكن العودة إلى إدلب من حيث أتيت، بسبب اشتباك المتظاهرين مع رجال الأمن والشبيحة عند محطة الوقود الخاصة بشركة «محروقات».. ومن سراقب

يا أستاذ، ذهبت إلى أريحا، ومنها اتجهت إلى إدلب.. وحينما وصلت إلى «معسكر الطلائع» بقرية «المسطومة» وقعت في خطأ آخر يثبت بالدليل القاطع أنني غبي، بل، أجَلّك الله، حمار!

قلت: حاشاك.. ماذا فعلت؟

قال: قبل أن أصل إلى هذا المكان كانت قد وقعت مجزرة رهيبة. إذ اشتبكت دورية مشتركة بين الجيش والأمن والشبيحة مع متظاهرين قادمين من جبل الزاوية، ووقع قتلى قالوا إنهم بالعشرات.. وحينما وصلتُ أنا كانت أعصابُ الدورية متوترة، وأنا كنت متوتراً أكثر.. وقد شاهدوا آثار الضرب والكدمات على جسمي فسألوني: من ضربك ولاه حقير؟

فقلت لهم من دون تفكير تقريباً: الشبيحة.. ضربوني.. الشبيحة!

فقالوا لي: ها ها.. يعني حضرتك متظاهر!

وعينك لا ترى- يا أستاذ- إلا النور!

أفلستُ بهيمة، أجلك الله، يا أستاذ؟!

الفصل الثاني عشر- القافلة تسير

مندسون مأجورون

خلال الانتفاضة السورية العظيمة التي انطلقت في أواسط آذار ٢٠١١، تفنن مهرجو النظام، من إعلاميين محنطين، ومثقفين ثوريين متعالين على الشعب، وأشخاص تافهين اعتادوا أن يعيشوا على فتات موائد الطغاة،.. تفننوا في الإساءة لأبناء الشعب السوري المظلومين الذين خرجوا يطالبون بحريتهم المفقودة وكرامتهم المهدورة.. فقالوا عنهم: حثالات.. ومندسون.. ورجعيون.. وسلفيون.. وقوى ظلامية.. وإمارات إسلامية.. وقال البعض الآخر إن هؤلاء المواطنين الذين يخرجون في الاحتجاجات السلمية إنما ينفذون المخططات الاستعمارية الرامية إلى تقويض نظام الممانعة التقدمي السوري على نحو جلي.. ولكي ينصفوهم فقد قسموهم إلى قسمين:

الأول، أناس ينفذون المؤامرات وهم على علم بذلك، يعني: خونة.

والثاني، أناس ينفذون المؤامرات من دون أن يدروا بذلك.. يعني: حمير، حاشاكم!

وبقي الشعب متابعاً ثورته السلمية الراقية، غير منصت لهذه الأقاويل التي ينطبق عليها المثل القائل «القافلة تسير والكلاب تنبح» أيما انطباق.

قوى ظلامية

إدلب - مطلع الثورة

معظم الذين شاركوا في مظاهرات الاحتجاج كانوا يهتفون «الله أكبر.. حرية»..

وذات مرة كنا، صديقي تاج الدين الموسى وأنا، جالسين في زيارة أحد الأصدقاء، وهو شيوعي من جماعة الرفيق عمار بكداش المؤيدة للنظام القائم.. وإذا بمجموعة من الأصدقاء الشيوعيين، من الفصيل نفسه، يدخلون علينا، إذ كانوا على موعد مع صديقنا صاحب البيت.

بعد التحية والسلام، انتقلنا إلى السؤال التقليدي:

- ما هي الأخبار في منطقتكم؟

قال أحدهم: الحقيقة عندنا شباب يخرجون في مظاهرات ويثيرون الفوضى.

قلت له: وما هي نوعيتهم؟

قال: والله يا أستاذ.. هم من «القوى الظلامية»..

وأضاف: بصراحة.. حزبنا أعلن موقفه الواضح إلى جانب النظام الوطني التقدمي.

قال تاج: يا سلام سلم على هذه الأيام التي وصلنا إليها. القوى «الظلامية» تطالب بالحرية.. والقوى اليسارية «التنويرية» تؤيد الاستبداد!

تسعيرة تظاهر وقتل

في الخطاب الذي ألقاه بشار الأسد بتاريخ ٣ / ٦ / ٢٠١٢ تكون حربه على الشعب السوري قد دخلت مرحلة جديدة، وهي مرحلة

اللعب على المكشوف.

في السابق كان بشار، وأزلامه، وإعلامه ينغمون على فكرة تصنيف الشعب والاحتجاجات في خانتين، الأولى تضم جماعة المطالب المشروعة الذين يحترمهم النظام ويقوم بالإصلاحات خصيصاً لأجلهم، والثانية تتضمن العملاء المأجورين..

وأما في الخطاب فقد اختصر بشار الثوار بأنهم أناس مأجورون فقط يتقاضون على قتل العسكري أو عنصر الأمن أو الشبيح أو المواطن «٢٠٠٠» ليرة سورية.

في إحدى المدن الريفية رُفعت لافتة كبيرة تتضمن تسعيرة للتظاهر السلمي، وأخرى للقتل.

مكتب بنور الله لتأمين المتظاهرين

يتوفر لدينا:

متظاهر سلمي ملثم ٥٠٠ ليرة.

متظاهر سلمي حاسر الرأس، يدير وجهه للكاميرا ٨٠٠ ليرة.

متظاهر سلمي حاسر الرأس، يدير وجهه للكاميرا ويقف في مكان مرتفع ١٠٠٠ ليرة.

قتل عسكري أو عنصر أمن أو شبيح أو مواطن بالرصاص «٢٠٠٠» ليرة.

قتل عسكري أو عنصر أمن أو شبيح أو مواطن بالسكين ٢٥٠٠ ليرة.

قتل كل ثلاثة أشخاص دفعة واحدة بقذيفة هاون ٥٠٠٠ ليرة.

ملاحظة: الجرحى على البيعة.. حتى ولو توفي الجريح متأثراً بجراحه.

الـ ما يشارك

في بداية الثورة كانوا يهتفون في المظاهرات «الـ ما يشارك.. ما في ناموس».. هذا الهتاف أغضب بعض الناس الذين كانوا على استعداد للمشاركة في وقت لاحق.. فعدل الثوار الهتاف فأصبح: «الـ ما يشارك.. الله يهديه»..

وبعد هذا الخطاب التاريخي مباشرة، خرج محامو حلب في مظاهرة حاشدة وكانوا يهتفون «الـ ما يشارك.. ما في ٢٠٠٠»!

أبواب المنازل

مع أنني أعرف النسيج الحقيقي للشعب الثائر عن قرب.. إلا أنني لا أجد لديَّ دافعاً لأن أنفي عنهم اتهامات النظام لهم بالعمالة.. فجماعة النظام أناس موتورون لا يستحقون حتى الرد عليهم.. ولكنني سأحكي لحضراتكم قصة، ستكتشفون، من خلالها، كم هو راقٍ وعظيمٌ هذا الشعب:

يوم الأحد الخامس من حزيران «يونيه» ٢٠١١، خرجت، في مدينة إدلب، مظاهرة ليلية تضم حوالي الألفين من الشبان، وكان عدد المتفرجين على المتظاهرين، المتعاطفين معهم، المستمتعين برؤيتهم وهم يهتفون للحرية، في حدود الألفين أيضاً.

وبما أن كل مظاهرة سلمية «في كافة أنحاء سورية» تُوَاجَهُ بالعصي، والقنابل المسيلة للدموع، وخراطيم المياه الخاصة بسيارات الإطفاء، وأحيانا بهجوم على المتظاهرين من قبل عناصر الأمن والشبيحة، وأحياناً يطلقون عليهم الرصاص الحي، فيهربون،.. فقد اتفق الشبان المتظاهرون مع الأهالي الكرام على ما يلي:

بمجرد ما تنتهي صلاة العشاء، ويخرج الناس للتظاهُر، تقوم كل

سيدات المنازل في هذه المنطقة، والبنات البالغات، بارتداء الثياب المحتشمة التي يرتدينها- عادةً- حينما يواجهن رجلاً غريباً «ليس من محارمهن»، ويتركن أبواب البيوت كلها مواربة، وكل شاب، كائناً من كان، يطاردُه رجال الأمن، أو الشبيحة المسلحون، بقصد القبض عليه، أو قتله، من حقه أن يدخل إلى أي منزل كان، ويغلق الباب وراءه.. ووقتها يصبح من واجب أهل المنزل إيواؤه، وحمايتُه، وتقديم ما يلزم من واجبات الضيافة له، دواليك حتى يأتيه إشعار، عبر الموبايل، بأن الخطر زال، ووقتها يشكرُ أهلَ البيت ويغادر!

لا حوار

اعتاد النظام الديكتاتوري العائلي السوري، خلال ٤١ سنة، أن يضحك على ذقون أبناء الشعب السوري.. وكان ينجح في الضحك على تلك الذقون، ليس بسبب ذكائه المفرط، «حاشاه!»، ولا بسبب غباء الشعب السوري، «حاشاه!»، وإنما بسبب الخوف المعشش في قلوب الشعب.. أمَا وقد زال الخوف، مع بداية انتفاضة آذار «مارس»، فقد أصبح الأمر معكوساً، وأصبح بمقدور الشعب السوري العظيم أن يضحك على النظام الديكتاتوري العائلي حتى ينقلب على قفاه..

وحينما أراد النظام أن يتذاكى علينا، دعا عدداً من المعارضين «وبضمنهم الداعي لكم مؤلف هذا الكتاب»، إلى جلسة حوارية تشاورية في فندق صحارى بدمشق، بدءاً من «٢٠١١/٧/١٠».

وكانت أسلحةُ الجيش السوري الثقيلة والمتوسطة، في الوقت نفسه، تفتك بالأهالي العزل في مختلف المدن والبلدات والقرى السورية، فرفض المدعوون الدعوة «ورفضها محسوبُكم مؤلف الكتاب طبعاً»، وانطلقنا يوم الجمعة «٢٠١١/٧/٨» في مظاهرات عمت المدن السوري كلها، تحت اسم «جمعة لا حوار»!

ولأجل مزيد من الطرافة، أقول، إنني، ابن الـ «٥٩» سنة، كنت قد تعرضت، قبل ثماني سنوات، لعملية مجازات إكليلية قلبية، وأعيش، منذئذ، على الأدوية، وقبل ست سنوات، تعرضتُ لعملية تبديل المفصل الحرقفي الفخذي الأيمن، ما جعلني أعاني من تحدد الحركة أثناء المشي، ولا أستطيع الركض، وأما صديقي الكاتب تاج الدين الموسى الذي شاركني في المظاهرة، فكان قد أصيب، قبل عدة سنوات، بسرطان الرئة، واستؤصلت إحدى رئتيه، ولا يستطيع أن يسير مئة متر من دون أن يكون متسلحاً ببخاخ الربو.. (توفي تاج في شباط فيراير ٢٠١٢).

خرجنا من أمام جامع سعد بن أبي وقاص بإدلب، واتجهنا جنوباً بقصد أن نتابع نحو حي البيطرة، ثم إلى الشمال لنلتحم مع المظاهرتين القادمة إحداهما من جامع أبي ذر، والثانية من جامع الروضة بحي القصور، ولكن، وبمجرد ما قطعنا حوالي خمسمئة متر، بدأ إطلاق الرصاص الحي والقنابل المسيلة للدموع على مقدمة المظاهرة، وشاهدنا، تاج وأنا، الشبانَ الهاربين في الاتجاه المعاكس وهم يصيحون «الله أكبر»، فركضنا معهم، مذعورين، في عكس الاتجاه، وأنا أضعتُ صديقي «تاج»، ولم يستطع عقلي أن يستوعب كيف اختفى بهذه السرعة وهو العاجز عن الركض!.. وما هي إلا لحظات حتى وجدتُ نفسي في مواجهة فصيل آخر من العساكر الذين يطلقون الرصاص الحي والقنابل على من كل يصادفهم، فعدتُ من حيث أتيت، راكضاً، حتى كدتُ أقع في قبض الفصيل الأول الذي كان يطلق النار على المقدمة..

ولكن.. ويا للروعة..

فجأة، فُتح بابٌ حديديٌّ أسود، وظهرت يدُ رجل، شدني إلى

الداخل وأغلق الباب، وهو يشير لي بيده نحو فمه أن اسكت، واهدأ.. وأقفل الموبايل.

كان يقف عنده، ضمن مساحة صغيرة جداً، وراء هذا الباب الأسود، ما لا يقل عن ثلاثين رجلاً مثلي، هاربين من القمع.. وكان ابنه، فتى في حدود «١٢» سنة، يقدم للشبان الواقفين ماء بارداً من زجاجة كبيرة.. كان فمي، في تلك اللحظة، قد أصبح يابساً كالقحف، شربتُ حتى ارتويت، وتوقف قلبي عن الوجيب..

مرت عشرون دقيقة، أحسستُ بها لذيذة، عظيمة، بحضور مجموعة من أبناء الشعب السوري الحقيقيين الذين يضحون بكل شيء في سبيل حريتهم ومستقبل أبنائهم.. بعدها خرج الفتى إلى الشارع، تفقد الأوضاع، ثم عاد ليخبرنا بأن الخطر قد زال.. وصاحب المنزل، بدوره، ابتسم لنا، وقال بصوت خفيض:

أرجوكم اخرجوا بهدوء، واحداً واحداً..

ففعلنا.. ونجونا..

***

الفصل الثالث عشر- المدينة وريفها

بازار أريحا

الاحتجاجات التي بدأت من مدينة درعا، «١٨ / ٣ / ٢٠١١» انتقلت إلى ريفها، ثم إلى مدينة دوما بريف دمشق، ثم إلى اللاذقية، وبانياس، وجبلة، ثم إلى الرستن «بلد وزير دفاع حافظ الأسد الأزلي مصطفى طلاس»، وتلبيسة.. ثم إلى ريف معرة النعمان وريف أريحا، وبالأخص جبل الزاوية الذي انطلقت منه الثورة على الفرنسيين سنة ١٩٢٠ بقيادة «الحاج مصطفى الحاج حسين».. التي اتحدت مع ثورة ابراهيم هنانو وعرفت باسم «ثورة الشمال».

في البداية، أي منذ أواخر شهر آذار «٢٠١١»، شرع أهالي قرى جبل الزاوية يتظاهرون، كلٌّ في قريته، ولكن هذه الطريقة لم تعجبهم، فنزلوا إلى مدينة أريحا نزلة عارمة، ملؤوا شوارعها هتافاً، وأوقعوا تمثال حافظ الأسد القريب من شعبة الحزب.. وبطريقهم أحرقوا مقر شعبة حزب البعث!

بعدها، على ما يبدو، أعجبتهم هذه النغمة، فصاروا ينزلون إلى أريحا كل يوم جمعة، ويتظاهرون فيها، وأحياناً يجدون وقتاً فارغاً في أحد أيام الأسبوع، فينزلون إليها أيضاً.

بعض أهالي مدينة أريحا، وبالأخص الشبيحة منهم، تضايقوا من هذا الوضع، إذ أصبحت أريحا، بفضل هذا التظاهر المستمر، مشبوهة

لدى الحكومة المحلية، والحكومة المركزية، والحزب.. وأرادوا أن يشوشوا على المتظاهرين القادمين من جبل الزاوية، لكي يثنوهم عن التظاهر في مدينتهم.. فضربوهم، ذات جمعة، بالحجارة والحصى من خلال بعض شرفات المنازل.

استطراد

ثمة عادة أزلية في هذه المنطقة. وهي إقامة بازار أسبوعي في مدينة أريحا، كل يوم سبت، ينزل فيه أهل جبل الزاوية إلى أريحا لأجل التبضع. وفي هذا البازار تُصْرَفُ مئاتُ الألوف من الليرات السورية، ويستفيد تجار أريحا الكبار، وبائعو المفرق، وأصحاب البسطات، من هذه العملية الأسبوعية، على نحو جيد.

في اليوم التالي لعملية الضرب بالحجارة والحصى من الشرفات، لم يأتِ أهل جبل الزاوية إلى البازار!!.. فدب الرعب في نفوس التجار وأصحاب البسطات، فشكلوا وفداً، وذهبوا إلى قرى جبل الزاوية، ودعوهم إلى التظاهر- متى يشاؤون- في مدينة أريحا.. ووعدوهم بكسر يد كل من تسول له نفسه أن يعتدي عليهم!!!!

بياع الكمون

حدثني الصديق أبو أحمد من مدينة معرتمصرين «شمالي مدينة إدلب ١٠ كيلومترات»، عن شخص فقير للغاية يدعى «أبو سلوم» يأتي من إحدى قرى جبل الزاوية إلى بازار معرتمصرين، كل يوم جمعة، ويفرش بسطته في الشارع أمام دكانه.

قال: لاحظت أن أبا سلوم، قبل صلاة الجمعة بحوالي ساعة من الزمان، يضب بسطته ويسافر. فقلت له ذات مرة:

- إنني أرى منك العجب يا «أبو سلوم»،.. فأنت تأتي من مكان بعيد، وتذوق الأمرَّين في السفر والتحميل والتنزيل و.. و.. إلخ.. ومع ذلك تغادر قبل أن ينفضَّ البازار، بل إن الوقت الذي تغادر فيه هو ذروة البيع والشراء في البازار.. هل لي أن أعرف سبب ذلك؟

فجاوبني ببساطة:

- أنا أذهب قبل الصلاة بساعة، لألحق صلاة الجمعة في مدينة أريحا، وأطلع مع أولاد جماعتي في المظاهرة!.. يا أبو أحمد معقولة الشباب عم ينقتلوا وأنا بارك في معرتمصرين أبيع الكمون؟!

***

الفصل الرابع عشر- ثورة الظرفاء الشرفاء

يَسَق

عُرف أهل حمص، عبر التاريخ، بالفكاهة والظرف، وخفة الظل.. وهم من أصحاب الفضول المعرفي، ومن محبي الفرجة على أي شيء يحدث على أرض الواقع.

في الزمن القديم.. على أيام العثمانيين.. حصلت بعضُ المشاكل في المناطق القريبة من مدينة حمص، فخرج المنادي ليذيع في الناس فرماناً «مرسوماً أو قراراً» يقضي بضرورة التزام المواطنين الحمصيين البقاء في منازلهم لا يغادرونها حتى إشعار آخر.

أوقف أهلُ حمص المنادي وسألوه عن سبب هذه الإقامة الجبرية الغريبة، فقال:

- يوجد يَسَق «يعني: منع تجول»..

فما كان من أهل حمص إلا أن خرجوا عن بكرة أبيهم إلى الشوارع والأزقة. وحتى الأشخاص الذين لا يخرجون من منازلهم، عادة، لأسباب نفسية أو صحيةٍ، خرجوا.

سألوهم عن السبب فقالوا:

- خرجنا لنتفرج على «اليَسَقْ»!

بيت المرحوم عبد الوارث

نحن نعرف، والنظام الديكتاتوري السوري المبني جملة وتفصيلاً على الاستبداد يعرف، أنه نظام عصابوي، مافيوي، غير قابل للإصلاح، وأن أي إصلاح سياسي ديمقراطي جدي، مهما كان صغيراً، سيعجل في سقوطه.

لذلك سرعان ما لجأ هذا النظام، منذ اللحظة الأولى لانطلاق حركة الاحتجاجات في سوريا، إلى «الحل الأمني»، المترابط- عضوياً- مع الكذب الإعلامي.. وشرع جنودُ الأسد ورجالُ مخابراته وشبيحتُه يطلقون النار على المواطنين.. ثم ينسبون الأعمال الإجرامية إلى المواطنين أنفسهم.

إن إطلاق النار في سوريا يكون بطريقتين، الأولى عمودية، إذ يُطلق الرصاص في الهواء لأجل تخويف الناس، وإجبارهم على الهرب، ويقال له «التَخْريع»، والثانية أفقية، مباشرة، يستهدفون بموجبها صدور الناس العارية، من دون لف، أو دوران، أو مواربة، ويسمى «الضَرْب عن صيب»!

ومعروف لدى معظم الناس أن الحل الأمني في مواجهة الاحتجاجات السلمية هو حل فاشل، فسقوط قتلى جدد يولد موجات جديدة من الكراهية للنظام، ويدفع المترددين الخائفين إلى الانخراط في الاحتجاجات، ولا سيما أثناء عملية دفن الشهداء.. وقد ساهم هذا الحل مساهمة فعالة في رفع سقف المطالب.. فبعدما كان الناس يطالبون بالحرية والكرامة والإصلاحات أصبحوا يهتفون- علناً- بإسقاط النظام.. ثم بـ «إعدام بشار الأسد».

وبسبب إصرار السلطة على ممارسة الحل الأمني الفاشل فقد

تحولتْ عمليةُ دفن الشهداء، بحد ذاتها، إلى ملحمة شعبية.. فالمُشَيِّعون، بأعدادهم الكبيرة، يخرجون من المقبرة، وينتظمون في مسيرة عظيمة، يطلق عليها رجالُ الأمن النار، فيسقط شهداء جدد، يتحول دفنهم في اليوم التالي إلى ملحمة.

التصعيد الشعبي قابله تصعيد أكبر من طرف السلطة، وسرعان ما دخلت الدباباتُ وعربات «البي إم بي» المصفحة إلى شوارع اللاذقية.. ثم إلى درعا وبانياس ودوما والمعضمية وداريا وحمص والرستن وتلبيسة وجبل الزاوية ومعرة النعمان وبنش وجسر الشغور ومعرة النعمان ودير الزور والبوكمال.. «ومع الزمن عمت البلاد، فأصبحنا نسمع بقرى دخلها الجيش لم نكن قد سمعنا بأسمائها من قبل».

ومن أطرف ما سمعتُ في هذا الشأن أن أحد المواطنين السوريين اقترح على إدارة المرور في سوريا أن تضيف إلى شاخصات المرور المتعارف عليها واحدة تكتب عليها العبارة التالية: اليمين مفتوح.. أفضلية المرور للدبابات وعربات «البي إم بي»!

ولا شك في أن كل من ساهم في هذه الثورة هو إنسان شريف، محب لوطنه، إلا أن ما شاهدناه، وقرأناه، ولمسناه من أهل حمص يجعلنا نقف أمامهم باحترام وإجلال، فعدا عن تقديمهم أكبر عدد من الشهداء «من البشر»، قدموا أكبر عدد شهداء «من الحجر».. فهذا النظام المجرم هدم مدينة حمص على رؤوس أصحابها، وسرق عساكرُه ورجال أمنه وشبيحته محتويات بيوتهم، فما زادهم هذا إلا ثورة، وإصراراً على نيل الحرية.

بودي أن أسأل الآن: يا ترى الظرف المعروف عن أهل حمص له علاقة بالمسألة؟ بمعنى آخر: هل يمكننا الاستنتاج أن الإنسان الظريف هو، حتماً، شخص شجاع، ووطني، وذو نفس حرة؟

السيد فرحان

كان السيد فرحان الحمصي مغترباً في بلجيكا، وسمع أن بلاده تمر بأزمة، فأحب أن يأتي إلى حمص ويشارك أهله مصيبتهم.

«ملاحظة: كل مَنْ رآه وسمع قصته كان يقول له: الله لا يعطيك العافية يا فرحان.. شو جابك على هالبلاد التعيسة في هذه الظروف؟!».

والأنكى من ذلك أن فرحان ليس له أسرة في حمص، فأهله ماتوا خلال غربته الطويلة «موتاً طبيعياً.. أو تحت التعذيب في المعتقلات.. أو بسبب وقوعهم تحت خط الفقر.. أو طقيقاً».. لذلك قصد بيتَ خاله الحاج عبد الوارث في باب السباع.

ذهب فرحان إلى باب السباع ليزور بيت خاله، فوجد الحارة قد تغيرت معالمها كثيراً.. فاضطر أن يتوجه إلى صاحب سوبر ماركت في الحارة بهذا السؤال:

- حجي.. الله يطول عمرك.. بتعرف بيت خالي الحاج عبد الوارث رحمة الله علاي؟

«علاي.. بلهجة أهل حمص القديمة تعني: عليه».

قال الرجل: طبعاً أعرفه. شوف أخي.. شايف الدبابة المتمركزة في قرنة الشارع؟

قال فرحان: أي شايفها.

قال الرجل: بتحط الدبابة بظهرك.. وبتبقى ماشي دغري.. بتشوف عربايا «بي إم بي» دايرة سبطانتها إلى اليمين. إمشي باتجاه السبطانة شي ميتين متر.. بتلاقي مجموعة قناصة واقفين عالأساطيح.. أي قناص منهم إذا سألته يستطيع أن يدلك على بيت خالك عبد الوارث.. رحمة الله علاي!

الفصل الخامس عشر- العم أبو فاروق

سياسة العم أبو فاروق

كان العم «أبو فاروق» يعيش حياته، في بلدة «معرتمصرين» الواقعة إلى الشمال من إدلب على بعد عشرة كيلومترات، بهدوء، ورضى، وبساطة تصل إلى حدود التسطُّح.. وعلى الرغم من كونه مسلماً، فإن تعامله مع الدين لم يكن يتجاوز حدود هذه البساطة.. إنه يردد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله، مرات عديدة في اليوم، ويصلي الأوقات الخمسة «من دون سُنَن»، ويصوم رمضان،.. وبسبب كونه فقيراً معدماً، لا يكترث لفرض الزكاة، لأنه واجبٌ على الأغنياء وحدهم،.. ولا يهتم لأمر الحج، باعتباره فرضاً على مَنْ يستطيع إليه سبيلا.. وهو غير مستطيع طبعاً.

لم يدخل العم أبو فاروق المدرسة قط، بدأ حياته يعمل بمساعدة أبيه في رعاية أشجار الزيتون، ومع الزمن اكتسب خبرة واسعة في هذا المجال، حتى أصبح مرجعاً لكل أهل البلدة فيما يتعلق بمسائل زراعة الزيتون ورعايته.

والشيء الطبيعي ألا يكون للعم أبو فاروق أي إلمام بشؤون السياسة.. بل على العكس، إن أي حديث سياسي يُفتح أمامه قد يؤدي إلى سوء التفاهم.. وبرغم كل الكياسة التي يتمتع بها، فهو قد يصرخ في وجه المتحاورين قائلاً:

- شيلونا من سيرة السياسة يا شباب الله يرضى عليكم!.. يعني تريدونني أن أجلس بينكم كما يجلس الأطرش في الزفة؟!

حسن البَنَّا

في يوم من أيام الثمانينيات من القرن العشرين، وفي خضم الحملات التي كانت السلطة تشنها لاعتقال أفراد جماعة الإخوان المسلمين، فوجىء أهالي معرتمصرين كلهم باعتقال العم أبي فاروق!

كنت، أنا ومجموعة من أصدقائي، واقفين عند «دوار البريد»، وإذا بصديقنا المرح «عبدو صفيرة» يأتي نحونا مسرعاً، ومن دون أن يرمي السلام قال:

- اليوم، يا شباب، اعتقلوا حسن البَنَّا!

إن الداعية الإسلامي حسن البَنَّا، للتوضيح، هو أحد الرجال الستة الذين أسسوا جماعة الإخوان المسلمين في مصر، وقد اغتيل بتدبير من قبل محمود عبد المجيد مدير المباحث الجنائية بمصر، يوم الثاني عشر من شباط فبراير ١٩٤٩، بعد ثلاثة أشهر من إصدار رئيس الوزراء «نقراشي باشا» فرماناً بحل جماعة الإخوان.

قلنا لصديقنا عبدو صفيرة، بصوت واحد: من تقصد بـ «حسن البَنَّا» ولاك؟

فقال، متابعاً تهكمه: أقصد العم أبو فاروق!.. اتضح أنه مفكر إسلامي خطير، ومنظر لفكر الإخوان المسلمين، ونحن ما عندنا خبر!

فأثار هذا التعليق بيننا موجة قوية من الضحك.

زيارة عائلية

بعد مضي أكثر من خمس سنوات على اعتقاله، تمَكَّن أحدُ أبناء أبي فاروق بزيارته في سجن تدمر. وبمجرد ما التقاه قال له:

- اسمع يا أبي، لقد دفعت من الرشاوى الشيء الكثير حتى وصلتُ

إلى هنا.. وأنت تظن أنني فعلتُ هذا كله لأنني مشتاق إليك، أو قلق عليك.. أليس كذلك؟

غضب أبو فاروق وقال: ولاك.. لماذا أتيت إذن؟

قال الابن: أتيتُ لأبوس يدك، ورجلك، وصرمايتك، وأُحَلِّفَك بالله تعالى، والأنبياء المرسلين، والأولياء الصالحين، أن تقول لي ما هي الجريمة السياسية التي ارتكبتَها «حضرتُك» حتى اعتقلك زبانيةُ حافظ ورفعت الأسد ورموك في هذا المكان الذي لا يَعْرِفُ الذبابُ الأزرقُ إليه سبيلاً!

تنهد العم أبو فاروق وقد أدرك ما يعتمل في صدر ابنه المسكين وعائلته المفجوعة من آلام وهموم بسبب سجنه. وحكى لابنه القصة من طاق طاق إلى السلام عليكم.. قال له:

- أنت تعلم أن ابن عمنا «أبو عبد الله» هو زعيم الإخوان المسلمين في البلدة.. الله لا يوفقه، هو الذي ورط الشباب من عائلتنا وغير عائلتنا بتنسيبهم إلى حزب الإخوان، وعلى إثر ذلك قُتل مَنْ قُتل منهم، واعتقل مَن اعتقل.. كل شب مثل طربون الحبق راحوا بشربة ماء.. «ودمعت عيناه وتمتم» الله وكيلك هذا شيء يحرق الفؤاد.

وفي يوم من الأيام، وكانت سلطة حافظ الأسد قد أوشكت على الانتصار على حزب الإخوان المسلمين، حضر «أبو عبد الله» إليَّ في بستان الزيتون وطلب مني أن أُرْكِبَهُ ورائي على الجحش وأوصله إلى الحدود التركية، لكي يهرب بجلده.. بيني وبينك؟ أنا فرحتُ لهذا الطلب.. قلت لحالي إذا طلع «أبو عبد الله» من البلدة فإنها بالتأكيد ستهدأ ونخلص من هذه العلقة.. بلا طول سيرة أوصلته إلى الحدود وانتهينا.. ولكن..

قال الابن: ولكن ماذا؟

قال أبو فاروق: الظاهر أنه روى الحادثة لأحد أفراد التنظيم، وأن ذلك الفرد قد اعتُقل، واعترف للمحقق، تحت التعذيب، بأنني أنا الذي أوصلتُ أبا عبد الله، على الجحش، إلى الحدود التركية، فأرسلوا زبانيتهم واعتقلوني!

كزدورة

العم أبو فاروق الذي لقبناه «حسن البَنَّا»، وظللنا نتداول هذا اللقب حتى درج عليه ونُسي لقبُه الأصلي، أمضى ست عشرة سنة بشهورها، وأسابيعها، وأيامها، ولياليها، وساعاتها الطوال المملات، في ظروف لم يعرف التاريخ لها مثيلاً في قسوتها وبشاعتها ولاإنسانيتها.. حتى إن صديقي من حزب العمل الشيوعي الشاعر «ف ب»، قال لي حينما ذهبنا لنسلم عليه، في بلدته التابعة لمحافظة حمص، بعد خروجه من سجن تدمر، بالحرف الواحد:

- صدقني.. الاعتقال في سجن تدمر شيء فظيع، شيء لا يمكن وصفه بدقة.. ولكن.. بالنسبة إلينا نحن المعتقلين الشيوعيين، كانت تهون علينا مصيبتُنا حينما نقارن أنفسنا بالمعتقلين من جماعة الإخوان المسلمين!!.. وأما المعتقلون لأسباب جنائية، كمهربي الحشيش، والفارين من الخدمة العسكرية، فكانوا يشعرون أنهم، بالمقارنة معنا ومع الإخوان المسلمين، في «كزدورة».. فتأمل!

لقطات من السجن

لا شك في أن الذين بقوا على قيد الحياة من معتقلي الإخوان المسلمين في سجن تدمر كانوا يتمنون لو أنهم ماتوا في مجازر رفعت الأسد الشهيرة «في حماه وحلب وجسر الشغور وسجن تدمر ١٩٨٠-١٩٨٢» .. أو، لو أنهم كانوا منظمين في الجناح العسكري للإخوان

وأعدموا بموجب القانون ٤٩ لعام ١٩٨٠.. أو، لو أنهم ماتوا بحادث سيارة، أو بالجلطة، أو بزلزال، أو بصاعقة.. وبذلك ينجون من الاعتقال!!!

إن هؤلاء، كما لا يخفى على أحد، من أصحاب التهم الصغيرة التي تتراوح بين التعاطف النفسي مع تنظيم الإخوان، والتبرع بعشر ليرات للجماعة، أو نقل رسالة، أو توصيل شخص مطلوب على ظهر الجحش من مكان إلى مكان، «كما فعل العم أبي فاروق.. مثلاً»،.. وقد أمضوا في هذا السجن فترات تتراوح بين عشر سنوات وخمس وعشرين سنة تحت سقف مفتوح، يدخل منه المطر، والثلج، والبَرَد، والزمهرير في الشتاء،.. والحر، والغبار، والحشرات الطائرة في الصيف،.. وكان يناوبُ فوق هذا السقف المفتوح، في كل مهجع، ثلاثة أو أربعة من العناصر المسلحة، لا عمل لهم غير التسلي بمراقبة هذا الجَمْع الإنساني المتلازّ الذي يجلس النفرُ منه وينام ضمن مساحة لا تزيد عن نصف متر مربع، ويؤمَرون أن يناموا «يناموا تماماً.. وبكل معاني الكلمة» في السادسة مساءً ويستيقظوا في السادسة صباحاً «علماً أن السادسة مساء في الصيف تعني: بعد العصر!».. وأن يلتزموا بتنفيذ أمر النوم دون حركة «يعني أن يكون شعورُ المعتقل مسيطراً على لا شعوره، فلا يتحرك أثناء النوم، مهما كلف الأمر».. فإن تحرك يصيحُ به أحد الحراس الواقفين فوق فتحة السقف:

- أنت ولاه.. الذي تحركت.. حدد رقمك..

فيقول، مثلاً: ١٦

وفي اليومُ التالي يُدعى أصحابُ الأرقام الذين تحركوا أثناء نومهم إلى الساحة، وتأتي مجموعة من العساكر الحاقدين، يحملون في أيديهم ما يتيسر من عصي وكرابيج وأكبال نحاسية، وينهالون عليهم ضرباً، على رؤوسهم، ووجوههم، وظهورهم، وبطونهم، وأيديهم، وأرجلهم، كيفما اتفق.

عودة إلى العم أبي فاروق

خرج العم أبو فاروق من سجن تدمر، بعد ست عشرة سنة، وهو أشبه ما يكون بالبعير الذي تعرض لحادث سيارة شاحنة مسرعة.. وكان وزنه، حين خروجه من سجن تدمر، لا يتجاوز الثمانين كيلوجرام، علماً أنه دخل السجن ووزنه مئة وعشرون كيلوجرام!

ذات مرة، وبعد ثلاث سنوات من خروجه، تجرأ وحكى لنا عن الفظائع الذي تعرض لها هو وإخوانُه في ذلك المكان الرهيب. قال: هل يعقل، إذا ضربك أحدٌ ما، بالكابل، على ظهرك، الآن، أن يبقى مكان الضرب مرتسماً على ظهرك ست عشرة سنة؟

«وكشف لنا عن ظهره وإذا بتلك الأخاديد المتعرجة المسودّة ما تزال موجودة فيه منذ ذلك التاريخ!».

وحكى لنا عن الشبان بعمر الورد الذين كان السجان يأتي وينادیهم بأسمائهم، فيخرجون،.. وبعد قليل، يراهم، هو والآخرون، من نافذة المهجع، وهم يُعَلَّقون بالمشانق، ويسمعون أصواتهم وهم يُكَبِّرون، ثم يرونهم وقد تدلوا في الحبال مثل الخراف التي تتدلى من الكلابات في دكان القصاب.

سنوات الطعام

وحكى لنا «حسن البنا» عن سنوات الطعام. قال: هل سمعتم ببشر يتناولون البرغل، مثلاً، ست سنوات متواصلة؟

قلنا له: لم نفهم.

قال: يطعمون المساجين، مثلاً، ولمدة ثلاث سنوات متواصلة، بطاطا! في الصباح، والظهيرة، والمساء.. بطاطا.. لا شيء آخر. ثم.. ست سنوات برغل!!.. «وفجأة ضحك وقال».. البصل ليس أكلة رئيسية لا

في السجن ولا في الخارج.. ولعلمكم فإننا، في السنوات السبع الأولى من توقيفنا، لم نكن نرى البصل، لا مفروماً مع الطعام، ولا مقلياً، ولا مستقلاً. وفجأةً.. صار البصل رفيق دربنا لمدة أربع سنوات!!.. صارت رائحة السجن والمهاجع والحمامات كلها بصل!!.. وكنا نعجب من الحراس.. ألم يكونوا يتضايقون من رائحة البصل؟!

وحكى لنا عن المرض. قال: كان بيننا أطباء، وكانوا يعاينوننا، ويكتشفون أمراضنا. ولكن ما الفائدة؟!! إذا قال لك الطبيب يجب عليك أن تشرب «حبات ضد التهاب»، مثلاً، من أين ستأتي بالحبات؟ أنتم تعرفون أخي «محمد علي».. كان معنا في السجن. صار معه فقر كلس في العظام، وأصبح غير قادر على الدوس على قدميه. أبلغناهم عن وضعه، فجاؤوا له بطبيب من عندهم. وصف له الطبيب ست حقن «إبر» كلس، قيمة الإبرة الواحدة ربع ليرة. نحن لم نكن نملك أية نقود، ولم يكن يزورنا أحد من ذوينا ليزودنا بالمال، وإذا حضر لأحدنا، بطريقة ما، زائرٌ ما، وأعطاه بعض النقود، فإن الرب سبحانه وتعالى يغضب على هذا الشخص.

سألناه: كيف؟

قال: بمجرد ما يغادر الضيف يبدأ العساكر بضربه، ويظلون يضربونه حتى يتنازل لهم عن كل «ربع ليرة» أخذها من زائره. المهم، نحن لا نمتلك نقوداً، وهم رفضوا تقديم الحقن الكلسية لأخي محمد علي، وبقي كسيحاً حتى أُفرج عنه بعد الإفراج عني أنا بسنتين.

الموت ولا المذلة

في أواسط سنة ٢٠١٠ أصيب أبو فاروق بجلطة دماغية، سببت له شللاً نصفياً. صار غير قادر على مساعدة نفسه حتى فيما يتعلق

بالدخول إلى «الحَمَّام».. وصار يشعر بأنه ضيف ثقيل على أفراد أسرته الذين كانوا يساعدونه في كل شيء، حتى في المسائل التي تثير الاشمئزاز.. وصار يخجل من نفسه، وطيلة النهار يرفع يديه إلى السماء ويدعو الله قائلاً:

- يا رب.. خذني إليك.. أمتني.. لكي أرتاح، ويرتاح أفراد أسرتي من هذه الأعمال المضنية.

ولكن..

مع بداية الثورة السورية التي اندلعت في البلاد منذ أواسط آذار «مارس» ٢٠١١، «صحصح» أبو فاروق.. وصار يصلُ الليل بالنهار وهو يتفرج على المحطات الفضائية التي تعرض المظاهرات السورية المطالبة بالحرية والكرامة.. وكان يرفع يديه إلى السماء ويدعو الله قائلاً:

-يا رب.. أطل عمري.. حتى أرى أفراد تلك العصابة المجرمة، سلالة محروق النفس حافظ الأسد، مُعَلَّقين في المشانق!.. وبعدها أنا تحت أمرك.. وعزتك وجلالك لا أريد أن أعيش دقيقة واحدة بعد ذلك المشهد!

شأن متصل

من أجمل ما كان يحدث في سجن تدمر المرعب، وأطرفه، وأغربه، وأروعه، وأكثره فرادة في العالم، عبر العصور، أن الشبان الصغار الذين اعتقلوا وهم في الثانوية، أو في سني الدراسة الجامعية، وسيقوا إلى هذا المكان، كانوا يُشفقون على الرجال المتقدمين قليلاً بالسن، حينما يرونهم يُضربون بهذه الطريقة التي يقف الوحوش أمامها مندهشين، مذعورين من فظاعتها، فلجؤوا إلى ما يلي:

حينما يتحرك أحد الرجال، في فترة النوم الإجبارية، ويقول له الحارس الواقف عند فوهة السقف «ولاه.. حدد رقمك!»، ينبري أحد الشبان الصغار ويعطيه رقمه، بالنيابة عن العم الذي تحرك، وفي اليوم التالي يتعرض الفتى الشاب للضرب، عوضاً عن الرجل، بالطريقة التي يقف الوحوش أمامها مندهشين، مذعورين من فظاعتها.

أبو ياسر

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر.. فإننا، في ذات مرة، ذهبنا إلى قرية «حزانو» التابعة لناحية معرتمصرين، لنسلم على سجين خارج من السجن، بعد أربع وعشرين سنة من اعتقاله، إذ كانوا- على ما يبدو- قد نسوه في سجن تدمر بعد خروج معظم المعتقلين منه، وكان في الأربعين من عمره، «اعتقلوه في سن السادسة عشرة»..

سألت أخاه الأكبر قبل أن نتقدم منه: بماذا نخاطبه؟

قال: أبو ياسر.

قلت: على علمي أنه غير متزوج.

قال: لقبوه في السجن «أبو ياسر».. نسبة إلى عمار بن ياسر الذي كان يتعرض للأذى من أهل قريش في صدر الإسلام.. لأنه كان يتعرض للضرب يومياً بالنيابة عن معظم الأعمام الذين كانوا معه في المهجع!

معلومات ذات صلة

*معلومة أولى: كانت عمليات شنق السجناء تجري في ثلاثة أيام من الأسبوع، السبت والإثنين والأربعاء.. استمر هذا حتى سنة ١٩٩١ حيث توقفت.

*معلومة ثانية: كان «النظام» يحب أن يكسبَ جميعُ أركانه ورموزه

شرف المساهمة في القضاء على جماعة الإخوان الذين أطلق عليهم الإعلامُ السوري اسم «العصابات الإجرامية، الخائنة، المتآمرة، التي تتستر بالدين والدين منها براء».. لذلك فقد عهد بأمر التوقيع على أحكام الإعدام إلى سيادة العماد أول الركن مصطفى طلاس!

جمال باشا

أثناء الثورة.. وبالتحديد في السادس من أيار ٢٠١١، حضر لزيارتي صديق قديم. كان غاضباً، وبدا على ملامحه أنه قد تشاجر للتو مع أحد ما.

قلت: ما بك؟

قال باندفاع: يوجد أناس في مجتمعنا حرامٌ عليك أن تدخل مع أحدهم في نقاش، أو حوار، أو حتى ملاسنة.. الصحيح أن تقول للواحد منهم، حينما يفاتحك بموضوع ما: معك حق.. كلامك صحيح.. أي والله.. ومهما أخطأ و«عَجَّقَ في رزق عباد الله» لا تنفعل منه، ولا تخالفه بالرأي.

قلت: هل لي أن أعرف السبب؟

قال: طبعاً، فهؤلاء يأخذون الأمور بحرفيتها، ولا ينظرون إلى عمقها، وأبعادها المختلفة.

قلت: ما الذي جرى؟

قال: التقيت بجاري أبي عبود.. وبعد أن سلمنا على بعضنا البعض طلب مني أن أقرأ الفاتحة على أرواح الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا السفاح في دمشق ١٩١٦.. وأنا رفضت أن أقرأ الفاتحة، فزعل، وصار يرفع صوته حتى اجتمع حولنا الناس في السوق.

قلت: لماذا لم تقرأ الفاتحة؟

قال: نكاية بالمؤرخين!

قلت: لم أفهم.

قال: أنا مستعد أن أُفهمك. يا أخي لقد صرعوا «طيرتنا» بقولهم إن أحمد جمال باشا رجل «سفاح».. تصور.. يا رجل.. سفاح.. دخل التاريخ من أوسع أبوابه على أنه «سفاح»، ومجموع الرجال الذين أعدمهم كله على بعضه «١٦» رجلاً!! أي شو هالسفاح التافه السخيف ياه؟

حزورة

لم يكن ولاءُ سيادة العماد أول الركن مصطفى طلاس للحركة التصحيحية، والقائد الملهم، المفدى، الرمز، التاريخي، الأسطورة، حافظ الأسد، ولاءً عادياً.. بل هو ولاء راسخ، يقيني، مطلق، بل وأكثر من المطلق.. ولم يكن سيادته في الوقت نفسه، شخصاً عادياً، بل إنه ن صاحب هوايات وسجايا لا يمكن أن يطالها الحصر أو التعداد.. حتى إن أحد الأشخاص الظرفاء اخترع أحجية، أو ما يسمى في العرف الشعبي «حزورة»، تتلخص في السؤال التالي:

رجل وسيم، أنيق، بسام الوجه، خفيف الظل، صاحب نكتة، يهوى صيد «الفري»، والأدب، لديه دار نشر، ومزرعة خيول عربية، يتمتع بخبرة واسعة في فن الطبخ، وفوائد الثوم «ولا سيما في الوقاية من الجلطات القلبية».. وفي أواقت فراغه يعمل بصفة «وزير للدفاع».. فمن هو؟!!

.. وعلى ذكر العماد أول طلاس

يمكنُ، إذن، من هذه الزاوية، أن نعتبرَ العمادَ الأول الركن مصطفى طلاس، شخصيةً ظريفة، طريفة، تتمتع بفرادة قلما تتمتع بها شخصية سياسية من هذا الوزن.. ولمزيد من الإيضاح أقول إن سيادة العماد

لم يكن يظهر على وسائل الإعلام إلا في حالات نادرة، منها الذكرى السنوية لميلاد الحركة التصحيحية، والحديث عن شخصية حافظ الأسد «باعتباره زميله في الخدمة العسكرية وبينهما عشرة عُمر».. وكان يشتهر بكثرة الكذب والتلفيق والسباب والمسخرة والتنكيت على كل من تسول له أن ينتقد، تلميحاً، أو تصريحاً، سلوك القائد التاريخي حافظ الذي لا يخطيء «لكونه مُلْهَماً»..

ومما روي عنه أنه توسط ذات يوم، جلسة شبه رسمية، حكى خلالها كلاماً يخجل أي إنسان عاقل أو عنده ذرة من حياء من ذكره بحق الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات..

«وقد أساء، في الجلسة ذاتها، إلينا نحن أهل محافظة إدلب»!

بياخة مضاعفة..

يحيا العدل

على ما يبدو أن جلسات «محكمة أمن الدولة» كانت تعقد في مكان سري، أو في أماكن سرية متحركة، بقصد التمويه. ذلك أن معظم الروايات التي سمعناها- لاحقاً- من الرجال الذين اعتقلوا، في الثمانينيات، بتهمة التعاطف مع الإخوان المسلمين، تقول إن: «رجال الأمن عصبوا أعيننا، وأصعدونا إلى حافة سارت بنا لعدة ساعات، ثم فتحنا أعيننا لنجد أنفسنا في قاعة كبيرة، ننتظر أن يأتينا الدور لنُعْرَضَ على قاضي محكمة أمن الدولة».

وكانت أطول محاكمة لأي معتقل لا تستمر أكثر من دقيقة ونصف، أو دقيقتين ونصف في الحد الأعلى، فمساعد القاضي يفتح إضبارة المتهم الماثل أمام القاضي، ويقرأ المفردات الخاصة به، مثلما هي مدونة في هويته، ويسأله:

- صحيح؟

فيرد المتهم: صحيح.

ويدفع بالإضبارة أمام القاضي فيقول له، مثلاً:

- تهمتك، يا فلان، نقل رسالة من المجرم فلان الفلاني في حلب، إلى المجرم علان العلاني في القرية الفلانية.. ماذا تقول؟

فيرد المتهم: نعم سيدي. حصل.

فيقول القاضي: حكمت عليك المحكمة بالسجن عشر سنوات.

فيردد المتهم: يحيا العدل!

فيسحبه عنصران خارج القاعة، تمهيداً لنقله مع زملائه إلى سجن تدمر، وينادي الصياح على من عليه الدور بعده.

لا اعتراض

في بداية محاكمات هؤلاء المعتقلين وقعتْ واقعةٌ تسحق أن نسجلها هنا لأهميتها الكبرى. فأحد المعتقلين، وهو محام، يَعْرِفُ أن القضاة «العاديين» لا يكترثون للاعترافات التي تُنْتَزَعُ من المعتقلين في أقسام الشرطة الجنائية، تحت التعذيب، وأنَّ من حقه أن يُنكر ما نُسب إليه أمام القاضي، ويُعاد استجوابُه..

حينما قال له القاضي:

- تهمتُك، يا فلان، هي توزيع مؤن وأموال على أهالي المعتقلين.. ماذا تقول؟

أجاب: هذا الكلام لا أساس له من الصحة سيدي.. وأنا اعترفتُ بذلك تحت التعذيب.

فنظر القاضي إلى الضابط المُنْدَب إلى المحكمة من قبل شعبة

الأمن العسكري نظرة ذات مغزى.. وعلى الفور سُحب المتهم من المكان، وأعيد إلى الفرع الذي أتى منه، وهناك اضطروا إلى إماتته تحت التعذيب!

وعلى إثر هذه الحادثة التي تسرب خبرها إلى داخل السجن، أصبح كل واحد من المعتقلين يوصي زميله بعدم «الأخذ والرد» مع قاضي أمن الدولة، ويجب عليه، حينما يسمع بالحكم، أن يهتف، بلا تردد: يحيا العدل.

ويضيف الناصحُ قائلاً لمنصوحه: فإن فعلتَ غير ذلك كان مصيرُك كمصير ذلك المحامي الذي أحب أن يتفذلك، ويتفيقه بمعرفته بالقانون،.. وكأننا نعيش في «بلاد القانون» حاشاك!

تباشير الانفراج

في أواسط التسعينيات بدأت تباشير خروج المعتقلين تلوح للأهالي المفجوعين بأبنائهم، وبدأت الإشاعات تسري في المدن والبلدات التي تمثل مراكز الثقل بالنسبة للمعتقلين والقتلى والمفقودين.. فبينما يكون أهلُ أحدهم جالسين، في أمان الرحمن، وقد نسوا، أو كادوا ينسون أبناءهم، بسبب تراكم زمن الغياب، إذ يرن الهاتف، ويُعلمهم أحد أفراد عائلة معتقل آخر بأن معتقلاً، من حلب- مثلاً- أخلي سبيلُه، وسلمنا عليه، وسألناه عن ابنكم فلان، فقال لنا إنه كان معه في نفس المهجع، وما هي إلا أيام ويكون بينكم.. فينبعث الأمل في نفوس هذه الأسرة، ثم يأتي ذوو معتقل آخر، ويسألونهم عما سمعوا، ويأخذون العناوين، ويركبون الباصات، ويذهبون إلى المدن والبلدات والقرى التي خرج بعض معتقليها، يسلمون عليهم، وكل واحد يسأله عن المعتقل الخاص

به، فيجيبه، بحماس، أنه قد رآه، ومتأكد من أنه سيخرج قريباً، أو يؤكد- صادقاً- على أنه لم يلتق به، أو يغمغم ويتذرع ببعض العبارات المبهمة، فيفهم منها الآخرون أن الشخص المقصود قد ذهب- كما يغني نجيب الريحاني- في خبر كان.

كل شي ممكن

الآن نكون قد وصلنا إلى الطرفة الأكثر أهمية في هذا الحديث كله.. وبطلها ابن بلدنا «أبو فاروق» الذي لقبناه «حسن البَنَّا»!

أبو فاروق، يوم كان في السجن، رأى، بأم عينه اليمنى، وأم عينه اليسرى، وبالعينين مجتمعتين، على نحو واضح، لا لبس فيه، ابنَ بلدنا المدعو «عثمان .. سين»، وهو يُعَلَّقُ بحبل المشنقة، وسمعه بأذنيه الإثنتين وهو يُكَبِّر، ثم رآه وقد تدلى تحت الحبال جثة هامدة.

المهم.. كنا جالسين، بحضور العم أبي فاروق، وإذا بأحد الأشخاص يدخل، ويعلن أن السيد «عثمان .. سين» قد خرج لتوه من سجن تدمر!

كان أبو فاروق متكئاً فجلس، وقال باهتمام شديد:

- أيش قلت عين عمك؟ أيش قلت؟ هل قلت إن «عثمان .. سين» خرج من السجن؟!!!!

قال الفتى باندفاع: أي والله يا عم. قالوا لنا إنه خرج، والآن استأجر أهلُه سيارة وذهبوا إلى «سراقب» ليلاقوه على الطريق العام القادم من دمشق.

حوقل أبو فاروق في سره، وغمغم قائلاً: سبحان الله..

«ملاحظة: إن رجال الأمن الأشاوس يوصون كل سجين، قبل إطلاق سراحه، بضرورة التكتم على ما رأى في السجن، وعدم البوح بما يعرفه

من أسرار.. تحت طائلة الإعادة إلى تدمر!».

حينما خرج الفتى قلت لعمي أبي فاروق: سِرُّك في بئر عمي.. أيش قصة «عثمان .. سين»؟.. ولماذا تشكك برواية الفتى؟ ألا يعقل أن يكون قد خرج من السجن بالفعل؟!

ابتسم وقال لي: والله يا أستاذ كل شي ممكن!

ثم انفجر غاضباً وقال: ولك.. كيف يمكن أن يخرج وأنا بعيني شفته معلق بالمشنقة؟!!

القَدَر

إذا أردنا أن نتوخى الدقة في الكلام، يجدر بنا ألا نكتفي بالقول إن النظام الديكتاتوري العائلي السوري حكم البلاد أربعين سنة بموجب قانون «الطوارىء» والأحكام «العرفية»، بل يجب علينا أن نؤكد على أن النظام، بحد ذاته، شيء «طارىء»، و«حُكم عرفي».. بل إنه نوع من أنواع «القَدَر» الذي لا رادَّ له.

القضاء والقدر

بعد انتصار الثورة في مصر الشقيقة.. تولى القضاء المصري العظيم مهمات تاريخية حضارية كبرى، منها محاكمة حسني مبارك، ونجليه، وبعض وزرائه الفاسدين.. كان قضاء شجاعاً، لم يرضخ لضغوط ولا لتهديدات، وقد جابه رئيس نادي القضاة رجال الثورة بقوله:

نحن نحكم بالقانون وحس العدالة.. طالما أنكم أحلتم هذه الملفات إلينا فالجدير بكم أن تقبلوا بأحكامنا، وألا تناقشونا بها.

كنا نجلس، أثناء هذه المداولات، في مقهى الثقافة بحلب، ونتحاور

بشأنها.. وأذكر أنني قلت:

إن الديكتاتورية التي كانت سائدة في مصر أيام مبارك لم تبلغ الحد الأقصى المرعب الذي بلغته الديكتاتورية في سوريا والعراق وليبيا.. مثلاً.. والسبب أن إخوتنا في مصر لديهم «قضاء»..

فأجابني الصديق الأديب محمد جمال طحان:

هم عندهم «قضاء».. ونحن عندنا «قضاء وقدر»!

الفصل السادس عشر- قصص وحكايات وطرائف أخرى

سطلٌ من اللبن

«حدثت هذه الطرفة في بداية الاحتجاجات التي شهدتها مدينة إدلب اعتباراً من أواسط نيسان ٢٠١١».

أمضى السيد «أبو عمران» الليلَ، وهزيعاً من الصباح، وهو يتشاور مع زوجته «أم عمران» حول أفضل الطرق، وأكثرها مناسبة لمخاطبة رئيس الفرع الأمني الذي يعتقل ابنَهما «عمران» منذ أول أمس، لأجل أن يحن قلبه عليه، فيخلي سبيله.

إنهما يعلمان، وكلنا نعلم، أن عناصر الأمن، بشكل عام، «ورؤساء الفروع الأمنية بشكل خاص» لا يُدار معهم أيُّ حديث طبيعي، فعدا عن نفسياتهم الحامضة، وعنجهيتهم، وتعاليهم على الناس، لديهم طريقة في الكلام مُربكة، وأسئلة تجر الشخص الجالس أمامهم إلى إجابات مضطربة، تقودهم إلى أسئلة أخرى، فإجابات غير متوازنة،... وإذا بصاحب الحق، المسكين، البريء، الجالس أمامهم، ينقلب إلى متهم لا يعرف كيف ينجو بجلده من هذه العلقة الوخيمة.

قالت أم عمران فجأة: عندي فكرة. سأعرضها عليك.

وشرحت فكرتها..

الفكرة أعجبت أبا عمران.. وما إن مثل أمام رئيس الفرع حتى نفذها بحذافيرها، إذ قال له:

- يا سيدنا، أول أمس، يوم الجمعة، أنا طلبتُ من زوجتي أم عمران أن تضع لنا طعام الغداء، فقد كنا جائعين جداً، وكانت قد قَلَتْ أقراصاً من الكبة، ومعلوم لجنابك، أن الكبة تحتاج إلى لبن رائب «عيران» معها، فما كان منها إلا أن طلبت من ابننا عمران، الله يخلِّ أولادك، أن يذهب إلى الدكان ويشتري سطلاً من اللبن الرائب، فخرج، وبالمصادفة، يا مولانا، بالمصادفة المحضة، كانت تعبرُ شارعنا مظاهرةُ احتجاج مُعارِضة للنظام، اللهم اعفُ عنا، وكان رجال الأمن، من فرعكم الكريم، يكمنون للمتظاهرين، فاعتقلوا بعضهم،.. وبالخطأ، بمجرد الخطأ يا سيدنا، وجَلَّ مَنْ لا يخطىء، اعتقلوا ابني عمران الذي كان واقفاً أمام الدكان، بقصد أن يشتري سطلاً من اللبن الرائب لغدائنا.. وأنتم، يا سيدي، على ما أعلم تقفون ضد الظلم، وإذا حصل التباس، أو خطأ، تسارعون إلى إصلاحه من دون تردد.

قال رئيس الفرع: حسناً.

ورفع سماعة الهاتف، وأمر عناصره: هاتوا لي عمران..

حينما مثل عمران أمام رئيس الفرع سأله عن سبب اعتقاله فقال:

- كنت في مظاهرة تهتف للحرية والكرامة وإسقاط النظام الديكتاتوري!

قال رئيس الفرع: هذه أول مرة تخرج في مظاهرة من هذا النوع؟

قال عمران: لا، ليست الأولى، أنا لا أذكر أنني فَوَّتُّ مظاهرة واحدة.. خرجت فيها كلها.

قال: هم.. يعني ما كنت تشتري لبناً من عند السمان..

قال عمران: لبن؟ أي لبن؟

قال رئيس الفرع: لا تعرف قصة اللبن؟ فكيف خرجت إذن؟ ومن طلب منك ذلك؟

تردد عمران قليلاً ثم نظر إلى أبيه بطرف عينه، وقال:

- الحقيقة أن أبي لم يطلب مني أن أتظاهر بشكل صريح، ولكنه يفرح ضمنياً حينما يرانا، أنا وإخوتي، نخرج في المظاهرات!

وين العشا؟

في بداية الثورة لم نكن نعرف من أين ستخرج المظاهرة في مدينة إدلب إلا قبل ربع ساعة من انطلاقها.. فكان الواحد من المهتمين بالأمر يتصل بصديق له، عبر الموبايل، ويسأله:

- أين بودكم تتعشوا الليلة؟

فيقول الآخر:

- العشا عند أخينا سعد، تفضل، أنت مدعو. «المقصود جامع سعد بن أبي وقاص»..

وهكذا يتجمع المتظاهرون في المكان المفترض «للعشاء»..

وأما يوم الجمعة فيكون السؤال: مين عازمنا على الغدا اليوم؟!

أرأيت أخي؟

كان التظاهر في تلك الأيام المبكرة من عمر الثورة مخيفاً، فالمخابرات ما تزال تحكم البلاد، والمخبرون- من كثرتهم- «على صرماية من يشيل»، وكان بعض المخبرين يدخلون بين المتظاهرين، ويلتقطون صوراً لهم، بالموبايل، وفي اليوم التالي، يبدأ عناصر المخابرات بسحب الأشخاص الذين يظهرون في صور المخبرين واحداً واحداً.

وكانت الأسرة التي تلاحظ على أحد أبنائها أنه يخرج في المظاهرات، تقلق كثيراً، وتحاول ثنيه عن هذا العمل المخيف، وأحياناً يُرسلون واحداً من أهله إلى مكان المظاهرة لأجل أن يسحبه منها ويعيده إلى البيت.

ذات مرة، كنا عائدين من منطقة جامع «الحسين» بالحارة الشمالية أنا وابني «مرداس» وصديقه «محمد».. بعدما شاركنا في مظاهرة حاشدة.. وإذا بشاب قادم على موتوسيكل، توقف بقربنا وقال لمحمد:

- يا محمد الله يخليك.. أخي مراد يكاد يوصلنا للجنون، فكلما طلعت مظاهرة ينسلّ من البيت ويخرج ليذهب إليها.. بالله عليك.. هل رأيته الآن في هذه المظاهرة؟

قال محمد ببراءة: لا والله.. لم أرَ أخاك مراد.. رأيت أباك فقط!

العرس

وكانوا يسمون المظاهرة- للتمويه أيضاً- «العرس».. وهي، بالفعل عرس.. ففيها يفرح الإنسان بكونه، لأول مرة في حياته، سيكون له قيمة، ومكانة، ورأي.. أضف إلى ذلك أن المظاهرة تتألف من مرحلتين، في المرحلة الأولى اعتصام في ساحة واسعة، حيث يغني الشباب للحرية، والكرامة.. وللشهيد «سكابا يا دموع العين سكابا- على شهدا سوريا وشبابا».. وفي المرحلة الثانية ينطلقون في خط سير محدد، حتى يصلوا إلى ساحة البازار، أو ساحة دوار معرتمصرين التي حملت، فيما بعد اسم «ساحة الحرية».. ثم ينفضُّون.

ولم تكن تمر مظاهرة، في تلك المرحلة المبكرة من عمر الثورة، من دون أن يعترضها رجال الأمن والشبيحة، ويطلقوا عليها النار، وكانوا أحياناً يكتفون بإطلاق الغاز المسيل للدموع، ويعتقلون بعض الشبان

ويسوقونهم إلى الفروع الأمنية، حيث يذيقونهم الموت لقاء ما سولت لهم أنفسهم فطلبوا الحرية والكرامة!

حالة إسعاف

ذات مرة.. خرج الشاب «عدنان» في مظاهرة، بعد صلاة الجمعة، ولكنه لم يعد.. فقلق عليه أهله، وما عادوا يعرفون ماذا يتصرفون.. خاصة وأنهم سمعوا أن عناصر المخابرات قد أطلقوا رصاصاً حياً على المتظاهرين، وهم سمعوا، في التوقيت نفسه، أصوات الرصاص يأتي من بعيد.

السيد «رشيد» شقيق الفتى «عدنان» اتصل بصديقه «أحمد» الذي يعمل ممرضاً في المشفى الوطني وقال له، مستخدماً لغة التمويه:

- مرحبا أحمد.. اليوم أخي عدنان ذهب إلى الـ «عرس» الذي يقام عند جامع سعد بن أبي وقاص.. وأنت تعرف أن عدنان مولع بالدبكة.. أريد أن أسألك.. هل أحضروا لكم «مطربين» أو «دَبّيكة» مصابين بطلقات نارية بقصد إسعافهم؟!!!!!

إياكم والغلط

استمر الوضع كما هو خلال حكم وريث النظام القمعي بشار، وعلى نحو لا يقل غرابة وفظاعة عن العهد السابق.. وقد روي عن أحد الوزراء في عهد بشار الأسد أنه كان جالساً في مكتبه يحتسي قهوة الصباح، وإذا برئيس مكتب أخيه «الجنرال ماهر الأسد» يفتح عليه الباب، ويتقدم نحوه، ويلف ياقة قميصه على يده، ويرفعه إلى الأعلى بقوة، حتى إذا ما أصبح في مرمى يده رقعه كفين أصعب من فراق الوالدين، ثم أجلسه، وشد أذنيه، على التوالي، ثم بصق في وجهه مرتين.. واتجه نحو الباب..

وقبل أن يغادر التفت نحو الوزير المذلول وقال له: أنت تعرف السبب.. باي.. وخرج!

اللصيقة العُرفية

أول مرة أسمع فيها بفكرة «اللصيقة العُرفية» كانت في سنة ٢٠٠٧ حينما ذهبتُ، برفقة الصديق الأديب الساخر «عبد الكريم أبازيد»، لزيارة العالم الاقتصادي الدكتور «عارف دليلة» الذي غادر المعتقل بعد أن أمضى فيه سبع سنوات عجافاً، عقوبةً له على تطاوله على «التروست العائلي: أسد- مخلوف- شاليش»، وذلك حينما صرح- على منبر ملتقى «الثلاثاء الاقتصادي» بدمشق- بأن واردات الخليوي إنما هي واحدة من الثروات القومية، مثلها مثل النفط والغاز والفلزات الطبيعية، والمفروض أن تُستثمر من قبل الحكومة، وأن تصب في خزينة الدولة، ولا يجوز أن يُعهد بها إلى أي شخص كان، كائناً مَن كان.

قلت له، ببراءة: ولكن.. هل هذا الكلام يستوجب الاعتقال لمدة سبع سنوات؟

قال: أولاً، أنا حُكمتُ عشر سنوات، وأخلي سبيلي قبل انتهاء مدة الحكم بثلاث سنوات بسبب مرضي.. وثانياً، أنا لم أعتقل وأُحكم عشر سنوات بسبب اعتراضي على استثمار الخليوي من قبل المدعو رامي مخلوف!

قلت: عجباً.. فبموجب أي شيء أخذوك؟

قال: بموجب اللصيقة العرفية من فئة الـ «عشر سنوات».

مفهوم «اللصيقة العرفية»

يجدر بي أن أوضح للقراء غير السوريين مفهوم «اللصيقة العرفية»:

إن المعتقل السياسي الذي يَمْثُلُ أمام محكمة أمن الدولة يتم تحديد مدة حكمه «قَبْلَ» البدء بالإجراءات الروتينية للمحكمة، فإذا كانوا قد قرروا «مسبقاً» الحكمَ عليه بالاعتقال لمدة خمس سنوات فإنهم يُلصقون على إضبارته اللصيقة العُرفية من فئة الـ «خمس سنوات».. وإذا كانوا قد قرروا الحكم عليه بالاعتقال لمدة عشر سنوات فإنهم يُلصقون على إضبارته اللصيقة العُرفية من فئة الـ «عشر سنوات».. وهكذا دواليك حتى تصل إلى «لصيقة الإعدام»!

تتضمن «اللصيقةُ» عدة بنود مما يتم تداوله في قانون الطوارىء.. منها:

السعي إلى تقويض النظام الاشتراكي..

إضعاف الروح المعنوية للشعب..

الشروع في تشكيل هيئات وتنظيمات سرية تعمل على قلب نظام الحكم بالقوة..

محاربة دستور الجمهورية العربية السورية..

بث الإشاعات المغرضة، والنعرات الطائفية التي من شأنها إثارة الفتن والقلاقل..

ولكل بند من هذه البنود تسعيرة تتضمن عدداً من سنوات السجن.. وفي «اللصيقة» الواحدة يضعون ما يكفي من البنود لتغطية المدة المقررة مسبقاً..

عودة إلى د. دليلة

قلت للدكتور عارف دليلة: أفهم من كلامك أنهم حكموك بلصيقة من فئة الـ «عشر سنوات»، ولم يوجهوا لحضرتك أي سؤال له علاقة بتهمتك الأساسية المتعلقة بحرصك على أن تصب إيرادات الخليوي

في مصلحة الشعب؟

قال: أثناء المحاكمة لم يفعلوا ذلك.. ولكن أحد الضباط استدعاني بعد حوالي شهر من صدور الحكم وزجي في المعتقل، وجلس يتحدث معي في موضوعات شتى.. وفي آخر المطاف سَرَّب لي سؤالاً عن الخليوي.. فقلت له:

- إن ما قلتُهُ في موضوع الخليوي هو الحق، وأنتم تعاقبونني لأنني قلت الحق! وكان الأجدر بكم أن تعاقبوني لو لم أقل هذا الكلام.. فالسكوت عنه جريمة.

نقع السجين

وكانت مهمة القضاة العسكريين في محكمة أمن الدولة تنتهي بعد إصدار الأحكام على المعتقلين بموجب اللصائق العرفية، وأما بقية القصة فيتكفل بها السجانون، وأفرادُ العصابات الأمنية التي تنتشر فروعُها ومفارزُها في مختلف المحافظات والمدن والبلدات والقرى السورية مثل الخلايا السرطانية.. فالسجين الذي تنتهي مدة «لصيقته» قلما يغادر السجن في الموعد المحدد، وأحياناً «ينقعونه» عدة أسابيع!! أو عدة أشهر!! أو عدة سنوات!! زيادة عن استحقاقه.. وأحياناً يطلبون منه تجهيز نفسه لإخلاء سبيله، وينقلونه من السجن الذي كان «منقوعاً» فيه «وهو سجن تدمر في الأغلب» إلى أحد مقارّ المخابرات في دمشق، تمهيداً لإطلاق سراحه.. وهنا أخمنُ أن عقولَ حضراتكم لن تصدقوا أن بعض السجناء كانوا يمكثون عدة سنوات ضمن هذه النقلة التمهيدية!!..

إثارة وتشويق

والحقيقة أن لهذا الأمر، رغم سوئه الظاهر، منافع جمة، أهمها توفر

عنصري الإثارة والتشويق.. فلو أن النظام أخلى سبيل كل «معتقل محكوم» فور انتهاء مدة اللصيقة العُرفية الخاصة به، لخلت قصتنا من الدراما والكوميديا في آن معاً.. وهذا ما لا ترضونه لنظامنا الديكتاتوري العتيد.

نيلسون مانديلا

في صيف ٢٠١١، أثناء الثورة السورية على حكم التروست العائلي، صادف أن سهرنا في مزرعة أحد الأصدقاء بمدينة إدلب، وخلال السهرة تطرق الحديث إلى الزعيم الأفريقي نيلسون مانديلا.. فانبرى أحد الساهرين يقول:

إنني- صدقاً- من أشد المعجبين بشخصية هذا الزعيم الأفريقي الذي تميز بإخلاصه لوطنه، وأن أفعاله تتطابق مع أقواله وشعاراته تطابقاً تاماً.. ولكن ما يزعجني في سيرته هو أن الإعلام العالمي قد صنع له هالة إعلامية كبيرة جداً تتعلق بسجنه الطويل.. يا رجل.. أيش يعني إذا سُجن مانديلا لمدة سبع وعشرين سنة؟!

قلت: عفواً، أأنت تستخف بها؟ يا أخي إذا كان عمر الرجل الوسطي ثمانين سنة فإن سجن الـ ٢٧ سنة يعني ضياع ثلث العمر بالتمام والكمال.

قال: يبدو أنك لم تدرك قصدي. فأنا ضد أن يُسجن المرء يوماً واحداً عقوبة له على رأيه.. ولكنني أريد أن أقارن بين السجون في بلادنا والبلاد الأخرى.

قلت: عذراً للمقاطعة.. تفضل.

قال: أنا لن أتوقف طويلاً عند المناضل السوري الكبير رياض الترك الذي قاربتْ مدةُ سجنه الثلاثين عاماً، موزعة بين عهد الأسد الأب والأسد الابن، ولكنني الآن على أتم الاستعداد لأن أعدد لك أسماء عشر

رجال غير مشهورين، من هنا، من مدينة إدلب وحدها، ممن تحضرُني أسماؤهم الكاملة، وأعرف كل شي من تفاصيل اعتقالهم، مكثوا في السجون السورية مدداً قريبة من مدة مانديلا.. هذا من حيث الزمن، وأما عن ظروف السجن فليعذرني مانديلا إذا قلت إن المقارنة بينه وبينهم فيها ظلم كبير لهم!

كنت أنظر إليه باندهاش، وإذا به يقول لي:

- أرجوك، يا أستاذ، لا تذهب بخيالك بعيداً، فهذا الشخص الجالس أمامك، واسمه «هاء خاء»، له قصة طريفة في سجن النظام الديكتاتوري السوري.. قصة تجعل ما ترسخ في وجدانك من حكاية سجن مانديلا يذهبُ أدراجَ الرياح لتستقر هي مكانها..

عمر الزهور

تقول القصة إن الفتى «هاء خاء» البالغ من العمر سبع عشرة سنة قد تقدم إلى امتحان آخر مادة من مواد الثانوية العامة الفرع العلمي، وخرج من القاعة مسروراً بما كان امتحانه في كافة المواد ممتازاً.. ولكن.. وما إن ابتعد مسافة ثلاثين متراً عن مركز الامتحان حتى «كَوَّشَتْ» عليه دورية تابعة لفرع الأمن العسكري بإدلب، وأجبرته على الصعود إلى السيارة، وفي داخلها أوثقوا يديه، وعصبوا عينيه، وانطلقوا به إلى مقر فرعهم بالقرب من شارع القصور.. وهنالك تعرض للضرب المبرح والسباب على أمه وأخواته وخالاته وعماته وجداته، ثم سيق، مع من سيقوا إلى المكان المجهول الذي تقع فيه محكمة أمن الدولة، حيث أعلموه أنه متعاطفٌ مع الإخوان المسلمين، وحكموا عليه بلصيقة عُرفية من فئة الـ «١٥» سنة، وألقي في غياهب السجن الرهيب المدعو «سجن تدمر».

بعد مضي سبع عشرة سنة، أي بعد سنتين فقط من انتهاء مدة

لصيقته، طُلب منه الاستعداد للخروج، ففعل، وشُحِنَ، على إثرها، إلى سجن صيدنايا بدمشق، وبقي هناك حتى سنة ٢٠٠٥، أخلي سبيله بعدها، فعاد إلى أهله وهو ابن «٤٢» سنة، وفي جعبته شهادة بكالوريا علمي قديمة، حصل عليها بعد شهرين من سجنه، وبعلامات عالية.

المغزى من القصة

حينما انتهى السيد «هاء خاء» من سرد حكايته.. نظر إلي، فوجد أنني لم أندهش كثيراً، فقال:

لا شك في أنك قد سمعت قصصاً كثيرة شبيهة بقصتي هذه.. ولذلك فإنك لم تندهش كثيراً منها.

قلت: والله إن هذا صحيح.

قال: هذا لأنني لم أصل إلى الجانب المدهش في الحكاية بعد.

قلت: إنني أنتظر.

قال: لا يوجد أسوأ من السنوات الـ «١٧» سنة التي أمضيتها في تدمر.. فقد «نكلوا» بنا هنالك بكل ما تعنيه كلمة «نكلوا».. ولكننا، حينما أصبحنا في سجن صيدنايا، شعرنا وكأننا خرجنا من نار جهنم، وقُذفنا، قذفة واحدة إلى الجنة، فهناك لا يوجد ضرب، ولا سباب، ولا إهانات،.. ويوجد، إلى ذلك، حمامات، وراديو، وتلفاز، وجرائد، وقد استمر ذلك حتى حزيران ٢٠٠٠ حينما تسلم الوريث بشار الأسد السلطة مكان أبيه.

قلت: ماذا حصل حينئذ؟

قال: كانت كل الأقوال، والوقائع، والدلائل، والاحتمالات، تشير إلى أن الوريث سيبيض السجون، وسنكون نحن أول الخارجين من السجن باعتبار أن مدة لصيقتنا منتهية منذ خمس سنوات..

قلت: ولم يفعلوا ذلك..

قال: ليتهم لم يفعلوا ذلك وكفى.. فوالله إن أسوأ خمس سنوات في عمر البشرية كلها هي تلك التي أمضيتها مع رفاقي بين سنة ٢٠٠٠ وسنة ٢٠٠٥.. فما إن تسلم بشار الأسد، وألقى خطاب القسم، حتى شُحِنَّا إلى مكان لا ندري ما اسمه، فهو أسوأ من سجن تدمر بكثير، وأصبحنا نتعرض للضرب المبرح مرتين يومياً حتى خرجنا!!!

***

الفصل السابع عشر- جناح خاص بأنصار النظام

منحبكجية

يشتقُّ السوريون اسم صاحب المهنة من خلال اسم المادة التي يتعاملُ بها، ويضيفون إليها المقطع «جي».. وهذا جريٌ على الطريقة التركية في الاشتقاق.. ففي التركية كلمة «ألطن» تعني «ذهب» وأما بائع الذهب فيقال له: «ألطن- جي».. والحرفي الذي يَصنع من «التنك» بعض الأدوات المنزلية يقال له «تنكجي».. وصانع العباءات «عبجي»، وصانع الشربات «شربتجي».. ومصلح الدواليب «بلاستيكجي».. وهكذا..

وأما محبو بشار الأسد الذين يعلقون صوره أمام محلاتهم التجارية ويكتبون تحتها «منحبك»، فقد أطلق عليهم الشعب السوري العظيم، لأجل احتقارهم، لقب: المنحبكجية!

وثمة شريحة من المنحبكجية أطلق عليهم الشعبُ لقب «المنركعجية».. سبب التسمية أن هؤلاء قد تبادلوا فيما بينهم رسالة عبر الموبايل هذا نصها: «مطرح ما الأسد بيدوس، نحن منركع ومنبوس»!

المرحوم تاج

أحد «المنركعجية» أرسل الرسالة نفسها «مطرح ما الأسد بيدوس،

نحن منركع ومنبوس» إلى صديق عمري الأديب الراحل تاج الدين الموسى، فرد عليه تاج برسالة حادة يقول له فيها:

- أنت معتاد على بوس الصرامي.. بُس صرماية من تشاء.. وصحتين على بوزك!.. وأما نحن فصرمايتنا تشرفكم.

المرحوم تاج.. أيضاً

عُلِّقَت صورة الديكتاتور الصغير بشار الأسد على جدران مدينة إدلب لأول مرة «مرفقة بكلمة منحبك» في صيف سنة ٢٠٠٧ حينما رشحوه لولاية دستورية «مزورة» ثانية.. يومها قال لي تاج وهو في منتهى العصبية:

يخرب بيتهم، يتحدثون باسم الشعب كله ويقولون له «منحبك».. مع أن أناساً كثيرين لا يحبونه.. أنا- مثلاً- ما بحبه!

الحق على الحرية

مع بداية الثورة، انقسم المجتمع السوري إلى ثلاث فئات: الأولى تضم الثوار والمناصرين للثورة، والثانية تضم والمنحبكجية والمنركعجية، والثالثة تضم جماعة أطلق عليها لقب «جماعة الله يختار الخير»! وأفراد هذه الجماعة الأخيرة تعاملوا مع الشأن السوري، وكأنه شأن خارجي، لا علاقة لهم به.. معتقدين أنهم، بذلك، سينجون بجلودهم، ولكنهم، كانوا، في المحصلة، من أكبر المتضررين من هذه الأحداث.

وكان المنحبكجية يدافعون عن وجهة نظرهم في تأييد النظام بطريقة غريبة، فيقولون للثوار:

- أنتم خرجتم من أجل الحرية، ولكن انظروا ما فعلته بنا الحرية، إن عشرات الألوف من الناس يُقتلون، ويُجرحون، ويسجنون، ويُعذبون في

المعتقلات، وينزحون من ديارهم.. فهل كان هذا سيحصل لو لم تطالبوا بـ «الحرية»؟!!

زعرنة

مرة، على سبيل المثال، كنت واقفاً عند الفوال، بالقرب من دوار الكرة بمدينة إدلب، وإذا بفتى أزعر يركب دراجة نارية ويسير بها، في عكس اتجاه السير، ويشفط بها، ويجعل عجلتها الأمامية تشبّ وترتفع في الهواء.. فقال أحد الواقفين:

- هذه هي الحرية التي يريدونها!.

وعلى سبيل التنكيت حدثني أحد الأصدقاء عن هزة أرضية خفيفة ضربت إحدى المناطق السورية، فسقط، بسببها، بناءٌ مخالف للمواصفات الهندسية، وقُتل فيها بعض الأشخاص، فعلق واحد «منحبكجي» على الحادثة بقوله:

- هذه هي الحرية التي يريدها الثوار!

اقعد يا ابني اقعد

وقعت الحادثة المؤلمة التالية في إحدى قرى محافظة حلب.

ذهب «المنحبكجي.. أبو سين» إلى أقرب كتيبة عسكرية، وطلب من قائد الكتيبة توجيه ضربة مباغتة للمسلحين من أبناء قريته الذين يسمون أنفسهم «الجيش الحر»..

وحينما طلبوا منه تحديد الأماكن التي يتواجد فيها هؤلاء المسلحون، قال: على راسي وعيني، أنا مستعد أن أخدمكم مئة خدمة مثل هذه الخدمة.

ورسم لهم، على ورقة بيضاء، إحداثيات الضيعة، والحارات، ووضع

عشرة خطوط حمراء على المنطقة التي تكتظ بمسلحي الجيش الحر.

في الليل، حينما بدأ القصف، ابتسم «المنحبكجي.. أبو سين» وقال في نفسه: تمام.

ركضت زوجته وأولاده إليه، وطلبوا منه أن يخرج معهم من البيت، لئلا تسقط قذيفة طائشة فوقهم فترديهم.

ضحك «المنحبكجي.. أبو سين» وقال ببرودة أعصاب مُفلقة:

- اقعدوا ابني اقعدوا.. هؤلاء الذين يضربون، ليسوا مغمضي الأعين. إنهم يعرفون أين يضربون.

ولم يكمل جملته، حتى نزلت القذيفة فوقهم، فتهدم البيت، ومات هو وإثنان من أولاده وزوجته.. وبقي واحد من الأولاد حياً.

«ربما بقي حياً لكي يروي هذه القصة الطريفة المؤلمة للناس»!

لا يوجد قصف «عشوائي»

اعتاد المحلل السياسي «المنحبكجي» المصاب بداء الإزهايمر «أحمد الحاج علي» أن يسوغ للنظام القاتل كافة أنواع الجرائم التي يرتكبها، فتراه مستبسلاً في اختراع العبارات والمصطلحات والاستنتاجات التي من شأنها الإقلال من نقمة الناس المتصاعدة على النظام.

من ذلك أن قناة «الجزيرة» سألته مرة عن «القصف العشوائي» الذي تنفذه مدفعية الجيش السوري ودباباته وراجمات صواريخه على الأحياء المأهولة بالسكان في مدينة «دوما» فقال للمذيعة:

- يا أختي الجيش السوري لا يقصف عشوائياً.. ما هذا الكلام؟ من أين تأتون أنتم في قناة الجزيرة بهذه المصطلحات؟!

قالت المذيعة: فماذا تسمي ما يحصل في دوما إذن؟

قال: لست أنا من يسميه، ولكنها الحقيقة.. إن جيشنا الباسل يقوم بعمليات جراحية بالغة الدقة، فالقذائف التي تتحدثين عنها تنزل، حصرياً، فوق أوكار الإرهابيين العملاء الذين يتلقون الدعم والتمويل من الخارج!

عملية جراحية بالغة الدقة

يوم الأربعاء ١ / ٧ / ٢٠١٢ تعرضت مدينة «معرتمصرين» لقصف عشوائي، وأصابت إحدى القذائف حائطاً بين غرفتين، إضافة إلى الشرفة الغربية الجنوبية من منزل رجل «منحبكجي» يدعى «أبو صاد»، وزوجته «أم صاد» هي الأخرى منحبكجية، وكذلك أولاده «صاد وعين وقاف ونون» كلهم منحبكجيون، حتى إن ابنه «قاف» يضع صورة حافظ الأسد وباسل الأسد وماهر الأسد كلوحة رئيسية «بروفيل» على حسابه في «الفيسبوك»..

بعد انتهاء القصف، وقف بعض الرجال من أبناء المدينة يتفرجون على الشرفة المتهدمة، والغرفتين المثقوبتين.. وكان أحدهم يقول متهكماً:

- هذه عملية جراحية، نوعية، بالغة الدقة!.. قام بها جيشُنا العقائدي الباسل! فههنا، في الغرفة التي تلي الشرفة، في لحظة سقوط القذيفة، كانت تنسيقيات الثورة في ناحية معرتمصرين مجتمعة كلها عند أخينا أبي صاد!!.. وفي المطبخ كانت أختنا أم صاد توعي جاراتها من الانجرار وراء هذا النظام المجرم.. وأما أبناؤه فكانوا يتدربون، مع أقرانهم، على قتال الشوارع في الغرفة الثانية التي اخترقتها القذيفة..

والتفت إلى الواقفين وقال لهم:

- سمعت أن بعض الأهالي بدؤوا ينزحون من المدينة.. لماذا النزوح

يا أخي؟ إذا كنت لم تشارك بأية أعمال تخريبية فما عليك إلا أن تفرش، حيثما شئت، وتنام، ولا بأس أن تشخر!!.. ولم لا تشخر ما دامت العمليات الجراحية الدقيقة مخصصة للإرهابيين؟!

***

الفصل الثامن عشر- خاتمة

شيء واحد أريد أن أقوله للسادة القراء..

وهو أن الثورة السورية طال أمدُها، وبدا العالم كله وكأنه متآمر على الشعب السوري، وفتحت البلاد السورية أمام تشكيلة واسعة من المتطرفين الشيعة والسنة، فأصبحت مرتعاً للاقتتال، والأجندات غير الوطنية، وابتعدت الثورة عن أهدافها، وأصبح حلم الدولة المدنية صعب التحقق، مع أن سوريا لن ينقذها شيء- برأيي- غير الدولة المدنية..

سنصل إلى هذا، ولكن التخلص من النظام والمتطرفين سوف يكلف الشعب السوري الكثير الكثير..

وبرأيي، أيضاً، أن نظام الأسد انتهى، بالفعل.. حتى ولو بقي موجوداً.. ومن يعتقد بأن إعادة تأهيله، بعمليات تجميلية، ممكنة، فهو واهم.. بل وساذج..

ملاحظة: إن كتابي هذا فيه نقص واضح يتعلق بحكايات المتطرفين التي ينطبق عليها مفهوم «الاستبداد».. والحقيقة أنني ضمنت حكايات المستبدين كتابي الآخر الذي سيصدر قريباً ويحمل عنوان: «حكايات سورية لها علاقة بالاستبداد».

***

خطيب بدلة

قاص وصحفي وسيناريست، من مواليد معرتمصرين بمحافظة إدلب شمالي سورية سنة ١٩٥٢.

يحمل شهادة الإجازة في العلوم الاقتصادية من جامعة حلب سنة ١٩٧٦.

حالياً: رئيس اللجنة الثقافية في رابطة الكتاب السوريين، أمين تحرير مجلة «أوراق» التي تصدرها الرابطة.

مؤسس ومالك ورئيس تحرير مجلة «كش ملك» الإلكترونية الساخرة.

أعماله الأدبية المطبوعة

١. حكى لي الأخرس- سخريات صغيرة ١٩٨٧. «دار الأهالي دمشق».

٢. عودة قاسم ناصيف الحق- قصص ١٩٨٩. «وزارة الثقافة دمشق».

٣. إمرأة تكسر الظهر- قصص ١٩٩٤. «دار الينابيع دمشق».

٤. وقت لطلاق الزوجة- قصص ١٩٩٨. «وزارة الثقافة دمشق».

٥. حادث مرور- قصص ٢٠٠٢. «الدار الوطنية دمشق».

٦. التداوي بالأدب- قصص ٢٠٠٥. «دار الحوار اللاذقية».

٧. إمبراطورية المجانين الديمقراطية العليا- قصص ٢٠٠٦. «دار نون ٤ بحلب».

٨. حب بعد الخمسين- قصص ٢٠٠٨. «دار نون ٤ بحلب».

٩. سيرة الحب والفقر والنحس ونكد العيش- مسرودات قصصية ٢٠٠٩. «دار مي- دمشق».

١٠. احترامي سيدي المواطن - كلام في الديمقراطيات المفقودة ٢٠١٠. «دار نون ٤ بحلب».

١١. المستطرف الأزرق- «ديوان الطرائف المعاصرة» ٢٠١٠. «دار نون ٤ بحلب».

١٢. المستطرف الأخضر- «ديوان الطرائف المعاصرة» ٢٠١١. «دار جداول بيروت».

١٣. عصفورية- قصص ٢٠١١. «دار نون ٤ بحلب».

١٤. المستطرف الليلكي «ديوان الطرائف المعاصرة» بالاشتراك مع القاص إياد جميل محفوظ - الإمارات.

مؤلفاته الأخرى: إعداد كتاب (الساخرون - نماذج من القصة الساخرة في سورية)- ١٩٩٢. «دار الأهالي دمشق».

مؤلفات عنه: كتاب «تجارب جديدة في القصة السورية - عالم خطيب بدلة السردي»، للناقد محمد محي الدين مينو - ٢٠٠٥. «دار ملهم بحمص».

كتب أعمالاً تلفزيونية كثيرة «حوالي ٢٠٠ حلقة» وأعمالاً إذاعية «حوالي ١٥٠٠ حلقة».

فهرس المحتويات

وثائق شرف ٧

وجهة نظر ٩

توضيح واعتذار..... ١١

الفصل الأول - من هنا كانت البداية..... ١٣

الفصل الثاني- طرائف إعلامية..... ١٩

الفصل الثالث- لقطات ونهفات ٤١

الفصل الرابع - القانون ٩٥

الفصل الخامس- توزيع الأدوار..... ٦٥

الفصل السادس- طرائف ثورية ٧٣

الفصل السابع- ثقافة اجتماعية جديدة ٨١

الفصل الثامن- إلغاء قانون الطوارىء..... ٨٧

الفصل التاسع- خاص بالجنرال..... ٩٣

الفصل العاشر- الحاشية الكريمة ١٢١

الفصل الحادي عشر- المواطن السوري..... ١٣١

الفصل الثاني عشر- القافلة تسير ١٣٥

الفصل الثالث عشر- المدينة وريفها ١٤٣

الفصل الرابع عشر- ثورة الظرفاء الشرفاء..... ١٤٧

الفصل الخامس عشر- العم أبو فاروق..... ١٥١

الفصل السادس عشر- قصص وحكايات وطرائف أخرى ١٦٩
الفصل السابع عشر- جناح خاص بأنصار النظام ١٨١
الفصل الثامن عشر- خاتمة ١٨٧

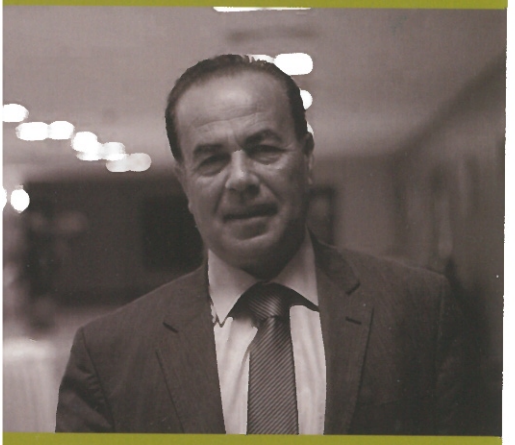

خطيب بدلة، أديب سوري ساخر، له خمسة عشر كتاباً مطبوعاً في مجال القصص القصيرة والحكايات والطرائف..

له عدد كبير من الأعمال الإذاعية والتلفزيونية

مدير تحرير مجلة «أوراق» التي تصدر عن رابطة الكتاب السوريين.

مؤسس مجلة «كش ملك» الإلكترونية الساخرة، وهو رئيس تحريرها.

دار نون للنشر

الأشخاص الذين عارضوا نهج النظام السوري، بمجرد ما عبروا عن هذه المعارضة، أصبحوا- في نظر الإعلام السوري- خونة، تحريفيين، مضللين، مأجورين، مرتبطين بالخارج،... ليس هذا وحسب، بل إنهم أناس منحطون على الصعيد الأخلاقي.. فالمعارض فلان الفلاني- على ذمة الإعلام السوري- له علاقات جنسية شاذة «مأبون»، وعلان العلاني يمتهنُ الدعارة، والشيخ «سين» كان يضحك على النسوان ويعريهن ليستمتع بالفرجة على أجسادهن، والمعارض «صاد» قَوَّاد تخونه زوجته بعلمه ويتولى بنفسه أمر محاسبة زبائنها.. والمجلس الوطني السوري يسمى في الإعلام السوري «مجلس اسطنبول» هو مجلس «كَرَزَايات»، بمعنى أنه متآمر مع الأميركان على بلده «مثلما فعل حامد كرزاي الأفغاني»... و«الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة» سرعان ما صار اسمه «ائتلاف الدوحة»، و«ائتلاف العمالة»!!..إلخ.

(نتيجة منطقية: يستحيل أن يوجد إنسان سوري شريف، وطني، مستقيم، يعارض هذا النظام!)..

ISBN 978-91-87373-21-3